أعلام العرب
٩٧

الشريف الإدريسي

أشهر جغرافي العرب والإسلام

بقلم: محمد عبد الغني حسن

الهيئة العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة لا بد منها

هل نال الادريسي الجغرافي العربي الشهير — حقه في المكتبة العربية بالدراستين اللتين كتبهما عنه الدكتور حسين مؤنس ، والأستاذ عبد الله كنون ؟

وهل ظفر الادريسي ببعض الحق الذي وجب له في أعناقنا — نحن العرب — بهذه الأشارات العابرة السريعة في مقال هنا أو بحث هناك . بدلا من بذل الجهود في تحقيق كتابه العظيم في الجغرافية ، وخرائطه الدقيقة في وصـف الأرض ، ومصنفاته الأخرى في النبات والصيدلة والأدوية ؟

الواقع أننا أغفلنا الادريسي منذ وفاته في القرن الســادس الهجري ، واسقطه مؤلفو التراجم من حسابهم ، الا فئة قليلة دانت بالوفاء له ، من أمثال العماد الأصبهاني صاحب « خريدة القصر » ، والصفدي صاحب « الوافي بالوفيات » وابن خلدون

فى مقدمته وحاجى خليفة صاحب « كشــف الظنون » . وحتى هؤلاء الأوفياء لم يوفوا الادريسى حقــه بالترجمة الـــكاملة والسيرة الشاملة والحياة المفصلة ... ولكنهم ذكروا من أخباره النزرة مالا ينهض برسم صورة دقيقة لهـــذا الرجل الذى كانت الدقة مزيته فى شأنه كله ، حتى وهو ضيف على بلاط الملك روجر الثانى بمدينة بلرم ـــ أو بلارمة كما يسميها الرحالة ابن جبير ـــ فى صقلية ، يتلقى المعارف من أفواه الرسل الثقات الذين أوفدهم روجر الى بقاع مختلفة من الأرض يجمعون المـــادة العلمية ، والبيانات الجغرافية لكتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » الذى ألفه الادريسى العالم العربى المسلم ، برسم الملك روجر الثانى ملك صقلية المسيحى بعد انتزاعها من يد العرب ، فكان خير مثال للتعاون المثمر .

والواقع أن استدعاء روجر الثانى للادريسى ليؤلف له كتابا وثيقا فى الجغرافية ، وليصنع له خريطة صحيحة مضبوطة للأرض هو أكبر شهادة على ما كان للعرب من فــوق فكرى فى ذلك الزمان .

واذا كانت أوربا قد أفادت من جغرافية الادريسى ، وجعلت كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » دليلها لعدة قرون ، ومعلمها حتى فيما يتصل بجغرافيتها هى وبأقاليمها ومدنها ... واذا كانت أوربا ـــ ممثلة فى علمائها ورجال الاستشراق فيها ـــ تحاول أن ترد دين الادريسى الذى وجب له فى أعناقها ، فمن حق

الادريسى علينا — ونحن أهله وقبيله — ومن واجبنا نحوه ، أن نجلو من جوانبه المضيئة التى حجبها الزمان ما نحن أولى من غيرنا بفعله ، وأجدر بالنهوض به ...

وفى هذا السبيل ، ومن أجل هذه الغاية كان هذا الكتاب الذى التقت فيه — مرة أخرى بعد كتابى عن جرجى زيدان — رغبتى ورغبة « الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر » ، فكان لقاء على الوفاء والانصاف ، والتقاء على هدف أرجو أن يكون فيه للقارىء خير كثير ، وأن يكون فيه للشريف الادريسى بعض التكريم والتقدير . وبالله التوفيق .

القاهرة سنة ١٩٧١ — محمد عبد الغنى حسن

موجز حياة

● على الرغم من الاهتمام الـــكبير الذى أبداه الباحثون نحو الشريف الادريسى ، وعلى الرغم مما طبع وترجم من كتابه «نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق» ، وعلى الرغم من الدراسات الكثيرة لنواح متعددة من كتابه الكبير ، ومشاركاته فى الجغرافية وعمل الخرائط ـــ فان حياته وتفصيلاتها ومعلوماتنا عنه لاتزال قليلة جدا ، وغير متكافئة مع القيمة العلمية لهذا الرجل . وقد يكون اغفال المؤرخين العرب والمسلمين له ـــ لأسباب تجدها فى موضـــع آخر من هذا الكتاب ـــ ســببا فى ضآلة البيانات والمعلومات التى وصلت الينا عن حياته .

وأول ما تتجه اليه هنـــا هو اســـمه . وقد أورده المؤرخ الصفدى فى كتاب « الوافى بالوفيات » هكذا : محمد بن محمد ابن عبد الله بن ادريس بن يحيى بن على بن حمود بن ميمون بن

أحمد بن على بن عبيد الله بن عمر بن ادريس بن الحسن ، بن الحسن بن على بن أبى طالب . فهو اذن حسنى علوى . ومن هنا جاء تلقيبه «بالشريف» ، كما جاء تلقيبه «بالادريسى» نسبة الى جده الأعلى ادريس (١) . وتصادفنا فى مقدمة ابن خلدون نسبته « بالحمودى » ، وهى نسبة لم نجدها عند غير ابن خلدون ، وهى نسبة الى جده (حمود) الذى تنسب اليه دولة بنى حمود بالأندلس الذين حكموا مالقة سنة ٤٠٧ هـ ، وحكموا الجزيرة سنة ٤٣١ هـ ، وهم ملوك الطوائف الأدارسة فى العهد الأول . وقد لقب الادريسى أيضا «بالشريف الصقلى» نسبة الى صقلية التى أقام فيها منذ أن استدعاه الملك روجر الثانى اليه . وكان قد توهم مرة أن الادريسى « نوبى » ، واستمرت تسميته باسم النوبى زمنا غير قصير . وقد جاء الخطأ فى هذه التسمية من العالمين المارونيين : حنا الحصرونى وجبرييل الصهيونى اللذين ترجما كتابه الى اللاتينية سنة ١٦١٩ تحت عنوان (جغرافية النوبى) ، لأنه وهو يتحدث عن النيل فى « نزهة المشتاق » قرأ المترجمان لفظة « أرضنا » بدلا من « أرضها » أى أرض النوبة، فتوهم الرجلان أن الرجل نوبى الأصل ، ووضعا اسم «النوبى» على عنوان كتابه . أما تسمية الشريف الادريسى «بابن الثيرى» — كما جاء فى خريدة العمادالأصبهانى — فقد أوردها«زيبولد»

(١) هو ادريس الاول بن عبد الله بن الحسن الذى أسس دولة الادارسة بالمغرب ومات مسموما سنة ١٧٧ هـ بتحريض من الخليفة هارون الرشيد .

فى ترجمته للادريسي فى دائرة المعارف الاسلامية وقال انه لا يعلم عنها شيئا ، ولكن الدكتور حسين مؤنس صحح أخيرا هذا الخطأ الذى يرجع الى اضطراب فى أوراق مخطوطة الخريدة فدخلت ترجمة ابن الثيرى فى ترجمة الادريسى (١) . أما تسمية الادريسى « بالقرطبى » فقد يكون صحيحا لأن الرجل قد دخل قرطبة وأقام بها أو عرفها معرفة وثيقة ، وتحدث عنها فى كتابه المشهور .

❋ ولد الأدريسى بمدينة « سبتة » المغربية سنة ٤٩٣ هـ ١١٠٠ م ، ولا يعلم شىء عن أحواله فى تلك المدينة ولا عن نشأته فيها ، ولا عن الشيوخ الذين تلقى عنهم . ولكن المعروف أنه رحل الى قرطبة وتلقى العلم فيها حيث كانت من أكبر مراكز الثقافة العربية الاسلامية . وقد أتاح له مقامه بقرطبة أن يجعل منها نقطة انطلاق لجولات كثيرة فى الأندلس، كما أتاحت له اقامته فى « سبتة » أن يجعل منها رحلاته الى بلاد المغرب التى يصفها وصف الخبير . على أن حديثه عن لشبونة وسواحل فرنسا وانجلترة الجنوبية يحمل على الاعتقاد بأنه زار تلك الجهات ، ففى وصفه لحصن المعدن قبالة لشبونة يقول : (وقد رأيناه عيانا . (٢) ورحلات الادريسى الى غير المغرب والأندلس وصقلية

(١) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد المجلدان ٩ ، ١٠ ص٢٨٣

(٢) الحلل السندسية : الامير شكيب أرسلان ج ١ ص ٩٢ . وفيه نص القسم الخاص بالاندلس من كتاب نزهة المشتاق للادريسى .

تحتاج الى كثير من التحقيق . فقد قيل انه زار آسيا الصغرى ، كما قيل انه زار فرنسا وانجلترة . أما رحلته الى آسيا الصغرى فقد أشار اليها كراتشكوفسكى وذكر أنها كانت سنة ٥١٠ هـ ـــ سنة ١١١٦ م حين لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره . وهى كلها استنتاجات لم تؤيد بعد بالأدلة القاطعة . أما أوصافه لبلاد آسيا وافريقية غير ما ذكرناه فلم تكن نتيجة أسفار قام بها ولكن نتيجة قراءاته للكتب التى ذكر بعضها فى مقدمته لكتاب « نزهة المشتاق » .

❋ وفى حدود سنة ٥٣٣ هـ ـــ سنة ١١٣٨ م (١) دخل الادريسى صقلية بدعوة من الملك روجر الثانى . وفى فصل من كتابنا هذا ذكر لظروف هذه الدعوة وكيفيتها . وفى خلال اقامته قريبا من بلاط هذا الملك الذى كان يشجع العلم والعلماء ، صنع الكرة الأرضية الفضية ، والخرائط والمصورات ، وألف كتابه « نزهة المشتاق » الذى كان بتكليف من روجر حتى ليسمى هذا بالكتاب الروجارى ، أو كتاب روجار ، نسبة الى الملك روجر الذى كتب له وألف برسمه .

وفى فصل خاص من كتابنا هذا حديث عن كتاب « نزهة

---

(١) ذكر الدكتور جمال زكريا قاسم ان الادريسى أقام فى صقلية فى الفترة من سنة ١١٠٠ م ـ ١١٦٦ م ، وهذا وهم كبير لان هذين التاريخين هما ميلاد الادريسى ووفاته . أما دخوله صقلية فكان فى سنة ١١٣٨ اى بعد ثمانية وثلاثين عاما من مولده .

المشتاق » وطريقة تأليف مادته ، وطبعاته العربية منذ أقدم طبعاته في القرن السادس عشر الميلادى ، وترجماته الى عدد من اللغات الأجنبية ، وتقدير العلماء له وآرائهم المنصفة فيه . وقد انتهى الأدريسى من تأليف كتابه هذا فى سنة ٥٤٨ هـ ــ سنة ١١٥٤ م. ومعنى هذا أنه أنجزه فى خمسة عشر عاما ، وهى فترة غير كثيرة على كتاب جمعت مادته الوافرة عن الأقطار والأصقاع بوساطة رسل أرسلهم روجر والأدريسى لتحصيل المعلومات ، وجمع البيانات ، حتى تكون الأوصاف عن معاينة لا عن نقل عن الكتب . ويشير الادريسى نفسه فى مقدمة «نزهة المشتاق» الى تاريخ الانتهاء منه .

* وقد بقى الأدريسى مقربا من الملك روجر الثانى منذ اتصاله به سنة ١١٣٨ م الى وفاة الملك سنة ١١٥٤ م نتيجة لمرض عضال كان ميئوسا من شفائه منه ، فلما أعقبه خليفته وولده « غليالم » الأول خشى الأدريسى أن تتأثر مكانته فى البلاط ، وصاحبته فترة من القلق . ويبدو أن هذا القلق قد تبدد حينما صنف الأدريسى للملك غليالم الأول كتابا عنوانه « روض الانس ، ونزهة النفس » ، وهو كتاب فى الجغرافية كما سنذكره فى فصل خاص من كتابنا هذا . ولا ندرى لماذا اختص الادريسى هذا الخليفة لروجر الثانى بكتاب آخر فى الجغرافية غير كتابه الكبير نزهة المشتاق الذى ألفه برسم والده وبتكليف منه ؟ قد

يكون هذا من باب التقرب الى الحاكم الجديد ، ولكن يظهر انه لم يطل مقامه فى صقلية بعد وفاة راعيه روجر الثانى . وان كانت معلوماتنا فى هذا الصدد غير متيقنة ولا متبينة . وعلى كل حال فالراجح أنه غادر صقلية الى سبتة (١) مسقط رأسه بعد بضع سنوات من وفاة روجر الثانى ، وظل فى سبتة فى ظروف لا نعلم عنها شيئا الى أن توفى سنة سنة ٥٦٠ هـ — سنة ١١٦٥م، لا سنة ١١٦٠ م كما جاء خطأ فى كتاب « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » للمستشرق الروسى أغناطيوس كراتشوفسكى . وقد حققنا ميلاد الادريسى ووفاته — مكانا وتاريخا — فى فصل خاص من كتابنا هذا .

● وعلى الرغم من المكانة التى كان يتمتع بها الادريسى فى مجال العلوم الجغرافية ورسم الخرائط والرحلات ، فقد كان للرجل نواح أخرى تؤكد تعدد ألوان ثقافاته وميوله . فقد كان له اهتمام بالصيدلة والنباتات والطب ، وان كان لم يبلغ فيها ما بلغه فى الميدان الجغرافى . وقد تحدثنا فى فصل آخر من كتابنا هذا عن مؤلفات الادريسى الأخرى فى غير ذلك الميدان الذى اشتهر به .

وليس غريبا أن يجمع الادريسى الى ذلك ذوقا فى الأدب ،

---

(١) هناك رأى بأن الادريسى لم يبرح صقلية الى سبتة ، وأنه توفى في صقلية . انظر الفصل الذى عنوانه « تحقيق الميلاد والوفاة » من كتابنا هذا .

وظرفا فى الحديث ، وأصالة طبع فى الشعر . وقد روى له صلاح الدين الصفدى المؤرخ الأديب المشهور والمتوفى سنة ٧٦٤ هـ . بعض نماذج من شعره . وعلق عليها بقوله فى نهاية روايته لها : (هذا شعر جيد) . وهذه الشهادة من أديب شاعر متذوق نقادة كالصفدى ، لها قيمتها فى تقدير الادريسى فى ناحية الأدب والشعر الذى كنا نود لو تسعفنا الحظوظ بالاطلاع على قدر كبير منه لو كان له فى الوجود وجود ..

● وللادريسى غير كتابه المشهور « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » مؤلفات أخرى شارك بها فى ميدان علم الجغرافية أيضا، والنبات ، والصيدلة ، والذى نعرفه منها : « روض الأنس ، ونزهة النفس » الذى يعرف باسم الممالك والمسالك ، وكتاب « روض الفرج ، ونزهة المهج » وهو تلخيص لكتاب روض الأنس السابق ذكره ، وقيل انه مختصر لكتابه « نزهة المشتاق » ، وكتاب « الجامع لصفات أشتات النبات » ومنه نسخة مصورة فى معهد المخطوطات بالجامعة العربية عن مخطوطة فى مكتبة الفاتح باستنبول . وللادريسى كتاب آخر فى « الأدوية المفردة » ذكره صاحب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » ويظهر أنه مفقود. وقد خصصنا هذه المؤلفات بفصلين من كتابنا هذا .

صقلية في عهد الإدريسي

ان قصة دخول العرب والاسلام فى صقلية هى قصة من أروع قصص البطولة والتصميم والادارة الحازمة . ولن نتعرض هنا لتفاصيل فتح الجزيرة ، ولكنا نوجز القول فى تملك العرب لصقلية وتمام استيلائهم عليها سنة ٢٦٥ هـ — سنة ٨٧٨ م ، وخضوع الجزيرة كلها لهم ٢٦٤ عاما ، الى أن استولى عليها النورمان سنة ١٠٩٠ م — ٤٨٣ هـ بعد عمليات كثيرة ضد العرب. وكانت قلة عدد الجنود النورمانيين وضعف أسطولهم أهم العوامل التى أطالت فترة الفتح النورمانى . ولا حاجة بنا هنا الى التحدث عن حكم العرب لصقلية قرابة قرنين ونصف قرن من الزمان ، ويكفى الرجوع الى ما قاله المستشرقون والأوربيون أنفسهم عن عدالة هذا الحكم وازدهار الجزيرة تحت لوائه . ومن هؤلاء الشهود العدول جوستاف لوبون ، ولويجى رينالدى ، ودييل ، وسيديو ، وآمارى ، وتوفنر .

ولقد دخلت صقلية باستيلاء النورمان عليها سنة ١٠٩٠ م فى ظل عهد جديد ، كان الحكام فيه من النورمان ، وأخذت مقاليد الأمور تنتقل من يد العرب المغلوبين الى يد الفاتحين الغالبين . وحكم صقلية فى العهد النورمانى أربعة من الملوك ، هم روجر الأول منتزع الجزيرة من يد العرب ، وابنه روجر الثانى ،

وغليالم الأول وغليالم الثانى الذى انتهى حكمه سنة ٥٨٦ هـ .

ولقد قضت الأقدار أن يدخل الشريف الادريسى صقلية سنة ٥٣٣ هـ — سنة ١١٣٨ م ، أى بعد ما يقرب من أربعين سنة من انتزاعها من يد العرب وسقوطها فى يد النورمان . وقد كان ملكها فى الوقت الذى دخلها فيه الأدريسى الملك روجر الثانى ابن الملك روجر الأول . ولنا مع هذا الملك حديث نرى أن نجمله فى فصل خاص نظرا لعلاقته بالادريسى من ناحية ولعلاقته بتأليف كتاب « نزهة المشتاق » من ناحية أخرى . .

ولقد اتخذ الحكام النورمانديون موقفا يتسم بالتسامح الدينى مع رعاياهم المسلمين الذين نزعت الأقدار السلطان من أيديهم ، فتركوا للمسلمين حرية أداء شعائرهم الدينية ، ولم يتعرضوا لهم بسبب تمسكهم بدينهم . ويروى بعض المؤرخين أنهم كانوا لا يأذنون للمسلم أن يرتد عن دينه الاسلام ويدخل فى دين الحاكم المسيحى الجديد .

وعلى الرغم مما بدا من الفاتحين النورمانديين من ملاينة العرب والمسلمين ومحاسنتهم فقد انقسم أهل الجزيرة العرب ازاء هذه الحالة الطارئة عليهم وهذه الهزيمة المقدرة لهم الى قسمين : فآثر جماعة كبيرة منهم أن يرحلوا عن هذه الأرض الاسلامية التى وقعت فى قبضة غير المسلمين ، وأن يغادروها الى أرض اسلامية قريبة منهم لا تكلفهم مؤونة فى السفر ولا مشقة فى الرحلة ، فاختاروا بر العدوة من الشاطىء الأفريقى ورحلوا اليه على

السفن الكثيرة التى كانت لهم ، والتى كانت تزدحم بها شواطىء صقلية . وأخلد الكثيرون من بقية أهل الجزيرة المسلمين الى البقاء فيها حتى يقضى الله أمره ، ورضوا أن لايبرحوا الأرض التى كانت لهم ولآبائهم حوالى ٢٥٠ عاما ، وتوسموا فى حكم النورمان المسالمين رعاية لهم ، وحفاظا عليهم ، وأمنة فى جوارهم وتحت لوائهم ..

وبلغ من محاسنة ملوك النورمان الفاتحين صقلية لأهلها من العرب أنهم فوق اضفائهم الحرية الدينيــة على المسلمين تركوا لهم حرية التمتع بثرواتهم ومتاجرهم ومصانعهم . فلم يصادروهم فى شىء منها ، بل شجعوهم على استثمارها وزيادة التحسين فيها حتى لا يكون هناك فارق بين العهد الاسلامى العربى والعهد النورمانى . وبلغ من محاسنة ملوك صقلية من النورمان أنهم تعلموا العربية كتابة وقراءة ، وتذوقوها ، وكانوا يطربون لسماع شعرها وأدبها . ولم يقضوا على العربية كما كان يظن من الغالبين ، ولكنهم تركوا لها مكان الصدارة فى الاستعمال والدواوين ، حتى لقد كانت براءات ملوكهم تكتب بالعربية واللاتينية واليونانية . وكانت العربية واحدة من اللغات التى تسك بها نقودهم ، وعليها شارتا الاسلام والنصرانية . وأعجب من هذا أن عبارة « لا اله الا الله محمد رسول الله » كانت توضع على النقود المضروبة فى العهد النورماندى ، وبقى الأمراء

الذى خلفوا النورمانيين يضربون نقودهم بالعربية زمنا غير قليل ، وكانت علامة الملك غليام بالعربية : « الحمد لله حق حمده » ، كما يقول الرحالة ابن جبير .

ولم يكن العرب والمسلمون فى عصر الفتح النورمانى منبوذين أو مبعدين عن جناب الحكام وكنفهم ، بل كانوا فى موطن القرابة ، وموضع الكرامة والرعاية ، فظل كثير من حكام المسلمين وقوادهم فى مناصبهم كما كان عليه العهد فى أيام الحكم العربى . وظلت موارد التجارة فى يد العرب ، كما كان كبار رجال الأعمال فى الجزيرة منهم .

والواقع أن معاملة الفاتحين النورمان لأهل المدن من صقلية كانت غير معاملتهم للفلاحين الذين يكدحون فى الأرض . فقد حدث فى « قطانية » أن روجر حين تغلب عليها استرق أهلها المسلمين وجعلها اقطاعا لرجل من رجال الدين المسيحى . ومن هنا جاءت الفروق الصارخة بين حرية أهل المدن من المسلمين ، وعبودية الفلاحين منهم . ولكن بعض مظاهر الحياة الاسلامية ظلت على عهدها القديم فى خلال الحكم النورمانى ، وبقى للمسلمين فى الجزيرة الشيخ والحاكم والقاضى ، والقائد ، وكان المسلمون ــ وخاصة فى الجمع والأعياد ــ يخرجون الى المصلى ومعهم صاحب أحكامهم .

واذا كانت الحرية مختلفة التطبيق بين أهل المدن وأهــل الفلاحة من المسلمين الخاضعين لحكم النورمان ، فأن هنـــاك فى روايات مختلفة لمؤرخ واحد أو رحالة واحد مسلم كابن جبير ما قد يشعر بأن هناك تباينا أو تناقضا فيما يقوله هــذا الرحالة فى رحلته الي صقلية بعد غزو النورمان لها بقرابة تسعين عــاما . فقد ذكر ابن جبــير بأنه شاهد فى بعض مواطن الجزيرة قوما يخافتون فى أداء العبادة (١) ولا يستطيعون الجهر بأنهم مسلمون، على حين أنه ذكر فى موضع آخــر من رحلته أن المســلمين فى « بلرم » يعمرون أكثر مساجدهم ، ويقيمون الصــــلاة بأذان مسموع (٢) . فلا معنى اذن للمخافتة بالعبادة . والحق أنه لم يكن هناك تناقض فى كلام ابن جبير ، فالمسلمون القريبون من مكان الملك وحمايته يتمتعون بالحرية التامة ، وكذلك المسلمون حين يكثر عددهم فى مكان أو مدينة . أما حين تبعد حمــــاية الملك ، وحين يصبح المسلمون قلة قليلة فى بعض الأماكن مثــل « مسينة » فهم أقلية يلجأون الى الحذر والخوف مما يثير عليهم سخط الأكثرية من المسيحيين .

ولقد كانت الحضارة العربية الاســـلامية غالبة على جــزيرة صقلية فى ظل الحكم النورمانى ، وفى ظل هذه الحضارة ألفى

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٣١ ، ٣١٦ — تحقيق حسين نصار .
(٢) رحلة ابن جبير ص ٣٢٠ ، وص ٣٢٢ .

روجر الأول ومن جاءوا بعده أنفسهم مغمورين بطابع عربى غالب لم يستطيعوا الفكاك منه . والواقع أنهم بهروا بهذه الحضارة فأحبوا أن يتفيأوا ظلالها ، وأن يعيشوا فى كنف نفوذها وسلطانها الروحى ، على حين كانت عصا السلطان فى أيديهم . وغالى ملوك صقلية من النورمان فى التشبث بحضارة العرب فى صقلية والتعلق بها ، وخاصة الملك روجر الثانى الذى جعل بلاطه شبيها ببلاط الأمراء المسلمين . فاستكثر — كما يقول ابن الأثير المؤرخ —(١) من الجنائب والحجاب والسلاحية والجاندارية وغيرها ، وخالف عادة الفرنج فانهم لايعرفون شيئا منها . وبرزت فى عهد الحكم النورمانى الجديد وفى ظل الادارة الجديدة أنواع من الدواوين التى هى امتداد للديوان العربى الاسلامى ، فكان هناك ديوان المظالم الذى اتخذه الملك عن نظام الدواوين الاسلامية . وكان أصحاب المظالم يرفعون شكاواهم اليه فيجدون النصفة ولو من ابن الملك نفسه . وكان هذا الديوان مظهر من مظاهر العدالة وتطبيقاتها السليمة فى بلد انسلخ من الحكم العربى ليقع فى قبضة حكم مسيحى جديد . وكان هناك ديوان الطراز الذى اشتهر بصنع أردية جميلة من الحرير ، وكانت تزخرف منتجاته بزخارف عربية اسلامية . وكان الملك روجر سعيدا بأن يضع

---

(١) الكامل : ابن الاثير جـ ٨ ص ١٥٩ .

على كتفيه عباءة من صنع هـذا الديوان . أما ديوان التحقيق المعمور فكان يهتم بالأرض الزراعية وتوابعها من الأرقاء .

ولم يكن من الغريب أن يسود التسامح أرجاء صقلية كلها لأن ملوكها من النورمان كانوا يحبون الهدوء والتسامح ، وان كانت قد قامت فى العهد النورمانى بعض حوادث الشغب التى راح ضحيتها عدد من المسلمين . ولكنها حوادث لم يكن بد منها فى بلد له ظروفه الخاصة .

أما الحركة الثقافية فى صقلية خلال الحكم النورمانى فقد بدأت بداية تبشر بالخير . ولقد شهد الشريف الأدريسى نفسه كيف كان الملك روجر الثانى ذا معرفة بالعلوم الرياضية والعملية ، وأنه كان له فى مخترعات العلم مشاركات وابتداعات غريبة . وشجع الملك العالم حركة العلم فى الجزيرة فأخذ يستحضر اليها الكتب العربية واليونانية مهما كانت أثمانها . ووجد العلماء فى كنف الملك حماية ورعاية وتشجيعا . وكان هو لا يسمع بعالم — عربى أو غير عربى — الا استقدمه الى جنابه وأفاد من علمه . وكثر الأطباء والمنجمون فى عهده فأجزل لهم العطايا وشجعهم على أبحاثهم . ومن هؤلاء العلماء العرب كان «الشريف الادريسى» الذى استقدمه الملك روجر الثانى وأدناه منه حتى كان من اسهامه فى علم الجغرافية وعمل الخرائط ما سنوضحه فى فصل مقبل .

الملك روجر الصقلي

كان أول ملوك النورمان الذين انتزعوا صقلية من يد العرب فى القرن الخامس الهجرى الملك رجار ، أو روجر الأول ، ثم جاء بعده ابنه روجر الثانى الذى استقدم الشريف الادريسى الى بلاطه ، ويعنينا الحديث عن هذا الملك المسيحى الذى حاسن العرب الذين أصبحوا رعاياه المسلمين ولاطفهم الى أبعد الحدود. وتجمع المصادر العربية وغير العربية على الثناء على هذا الرجل. ويحدثنا الشريف الأدريسى نفسه عن الملك روجر فى كتابه « نزهة المشتاق » قائلا : (ولما صار أمرها — أى صقلية — أليه ، واستقر بها سرير ملكه ، نشر سيرة العدل فى أهلها ، وأقرهم على أديانهم وشرائعهم ، وأمنهم فى أنفسهم وأموالهم ، وأهليهم وذراريهم) . ولم يسلم روجر الثانى من نقد نظامه الأقطاعى الذى أحدث انقلابا فى حياة أهل الجزيرة من العرب والمسلمين . ويؤكد لنا هذا ما قاله المؤرخ ابن الأثير عنه فى كتابه

الكامل : (فأسكنها الروم والفرنج مع المسلمين ، ولم يترك لأحد من أهلها حماما ولا دكانا ولا طاحونا ولا فرنا) (١) وقد يكون هذا حدث في الريف لا في المدن التي ضمنت فيها حرية المسلمين .

وقد ترك لنا الأديب المؤرخ صلاح الدين الصفدي في كتابه العظيم « الوافي بالوفيات » صورة جميلة للملك روجر الثاني الصقلي لا بأس من ايرادها هنا حيث يقول في ترجمته : (رجار ملك الفرنج صاحب صقلية هلك بالخوانيق سنة ثمان وأربعين وخمسمائة . ويقال فيه : أجار ، بهمزة بدل الراء وجيم مشددة ، وبعد الألف راء . كان فيه محبة لأهل العلوم الفلسفية . وهو الذي استقدم اليه الشريف الأدريسي صاحب كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » من العدوة ليصنع له شيئا في شكل صورة العالم . فلما وصل اليه أكرم نزله ، وبالغ في تعظيمه ، فطلب منه شيئا من المعادن ليصنع منه ما يريد . فحمل اليه من الفضة الحجر وزن أربعمائة ألف درهم ، فصنع منها دوائر كهيئة الأفلاك ، وركب بعضا على بعض ، ثم شكلها له على الوضع المخصوص ، فأعجب بها رجار ، ودخل في ذلك ثلث الفضة وأرجح بقليل ، وفضل له ما يقارب الثلثين ، فتركه له أجازة ، وأضاف لذلك مائة ألف درهم ، ومركبا موسقا كان قد

(١) الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ١٥٩ في حوادث سنة ٤٨٤ هـ .

جاء اليه من برشلونة بأنواع الأجلاب الرومية التي تجلب للملوك ، وسأله المقام عنده قائلا : ومتى كنت فى بلاد المسلمين لاتأمن ملوكهم على نفسك ، ومتى كنت عندى أمنت على نفسك ، فأجابه الىذلك ، ورتب له كفاية لاتكون الا للملوك ، وكان يجيء اليه راكب بغلة فاذا صار عنده يتنحى له عن مجلسه فيأبى ، فيجلسان معا ..) وقد أعجب كراتشكوفسكى بهذا النص المنقول عن « الوافى بالوفيات » للصفدى ، فنقله فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » ، كما نقل المرحوم محمد كرد على شطرا منه فى كتابه « الاسلام والحضارة العربية » حـ ١ ص ٢٦٨ ، ثم عاد فنقله كاملا فى كتابه « كنوز الأجداد » ص ٣٨٤ وهو يترجم للمؤرخ صلاح الدين الصفدى ترجمة وافية .

وقد بلغ من محاسنة الملك روجر الثانى للمسلمين من رعاياه أنه اتهم من قبل قومه بأنه اعتنق الاسلام ودان به ، فقد كان غريبا من ملك مسيحى متغلب أبوه على العرب فى صقلية أن يتخذ هذا الموقف المسالم الملايين من رعيته العربية المسلمة ، وأن لا يجعل لرؤساء الدين من قومه النصارى سبيلا الى التحكم فى المسلمين والتسلط عليهم . ومن هنا جاءت التهمة بأنه تحول الى الاسلام . وقد ردد تهمة اعتناق روجر الثانى الاسلام أكثر من مؤرخ أجنبى ، حتى أن المؤرخ « كروثر جوردون » وهو يحرر المادة الخاصة بصقلية فى دائرة المعارف الاسلامية أشار الى تسامح روجر مع رعاياه المسلمين قائلا : (.. بل نعموا

ـــ يعنى المسلمين ـــ أيضا بحماية روجر حماية كاملة . ذلك أن روجر لم يكن متحزبا فى مسيحيته ،ثم انه شجع هؤلاء المسلمين على أن ينموا مواهبهم ، ان لم يكن قد شجعهم على أن ينشروا دينهم . بل لقد اتهم هو نفسه بأنه مسلم . ذلك بأن روجر كان رجلا غير مثقف ، واذ رأى بعينيه اللتين لم تظلهما غشاوة التعصب عبقرية العرب العظيمة أبى أن يقتل روح هذه العظمة، فمنح المسلمين الحرية التامة فى ممارسة شعائر دينهم ، بل حرم على المسيحيين أن يبشروا بدينهم بين العرب . كما خفف من وطأة النظام الاقطاعى النورمندى على المسلمين ، وأخذ بنظام الأدارة الاسلامى) . والحمد لله الذى جعل روجر الثانى رجلا غير مثقف ، كما يقول واحد من قومه ! والا لأصلى المسلمين والعرب نارا حامية بثقافته المتعصبة . وقد يكون عدم الثقافة نعمة فى مثل هذه الحالة ! والا فماذا كانت تكون حال الرعايا المسلمين من أهل صقلية لو رزقوا بحاكم غير مسلم ومثقف ومتعصب ؟

والحق أن العرب فى صقلية قد نعموا فى عهد روجر الثانى بحكم عادل متسامح . فلم يشعروا فى أكثر أحوالهم بخوف ولا قلق ، بل كانوا هم والنصارى على قدم المساواة فى المعاملة. ويؤكد المؤرخون أن روجر الثانى أبقى على الموظفين والعمال المسلمين وأبقاهم فى مناصبهم وفى مواقع أعمالهم التى كانوا يمارسونها قبل الفتح النورمندى ، فظلوا يعملون وينتجون فى

أمان تحت امرته . ويقال ان معظم تجار بلرم (١) فى أثناء الحكم النورمندى كانوا من المسلمين .

وتهمنا هنا شهادة مؤرخ مسلم كبير هو ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ وصاحب كتاب « الكامل » ، فقد كان غير بعيد العهد من الأحداث التى مرت بالعرب والمسلمين فى صقلية ، فحين تحدث عن رجار الأول الذى انتزع صقلية من يد العرب أشار الى أنه لم يترك لأحد من أهلها المسلمين حماما ولا دكانا ولا طاحونا ، ولكنه حين تحدث عن ولده وخليفته روجر الثانى قال عنه : (وجعل له ديوان المظالم ترفع اليه شكوى المظلومين فينصفهم ولو من ولده ، وأكرم المسلمين وقربهم ، ومنع عنهم الفرنج فأحبوه) (٢) .والحق أنه لولا هذه الرعاية والحماية للعرب والمسلمين من روجر الثانى ، ولولا أنه بسط عليهم ظل أمنه لأصبحت حياتهم فى الجزيرة بعد ضياعها من أيديهم جحيما لايطاق . وقريب من شهادة ابن الأثير فى كتابه « الكامل » شهادة مؤرخ مسلم آخر هو ابن كثير الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤ هـ فى كتابه « البداية والنهاية » فهو يقول فى حوادث سنة ٤٨٤ هـ : (وفيها ملكت الفرنج مدينة صقلية من بلاد المغرب ومات ملكهم فقام ولده — يعنى روجر الثانى — مقامه فسار

(١) هى بالافرنجية Palermo وهى عاصمة صقلية اليوم وأكبر مدنها وموانيها .

(٢) الكامل : ابن الاثير ج ٨ ص ١٥٩ .

فى الناس سيرة ملوك المسلمين حتى كأنه منهم ..) [1] وعبارة حتى كأنه منهم ، توحى لنا بماأتهم به روجر الثانى من اعتناقه الاسلام .

والاشارة من المؤرخ كروثر جوردون الى أن الملك روجر الثانى كان رجلا غير مثقف هى اشارة غريبة الى رجل كان موقفه من العلم والعلماء موضع اعجاب المؤرخين جميعا . فكيف يتأتى لهذا الرجل غير المثقف — فى نظر جوردون — أن يحشد فى بلاطه العلماء من كل لون ، وأن يمدهم بكل ما يسهل لهم أسباب البحث ؟ وأن ينفق عليهم الأموال ولا يضن عليهم بنوع من المعونة لانجاز بحوثهم ؟ وموقفه مع الأدريسى ورواية الأدريسى عنه وعن بلاطه تؤكد لنا هذه العقلية الواعية الحريصة على نشر الثقافة . فقد كان روجر حريصا على مجالسة العلماء والمحادثة معهم فيما يعنيه من أمور العلم والمعرفة . وليس هذا شأن الرجل غير المثقف . فأن الثقافة سلوك قبل أن تكون دراسة منتظمة فى مدرسة . وقد يكون روجر الثانى حرم من التثقيف المدرسى المنظم ، ولكنه كان مثقفا بعقليته وذهنيته ومساعيه لنشر المعرفة . ويكفيه شهادة الصفدى له بأنه كان محبا لأهل العلوم الفلسفية . والفلسفة علم لايحبه العوام غير المثقفين من الملوك والحكام . ويبدو أن روجر الثانى كان من النوع الذى

(١) البداية والنهاية : ابن كثير . ج ١٢ ص ١٣٨ .

يثقف نفسه بنفسه . على أن تشجيعه للعلم والعلماء لم يقف عند حد العلوم الفلسفية وحدها ، فقد كان يشجع الطب والأطباء ولعل الأدريسى قد صنف كتاب (الأدوية المفردة) برسمه (١) ، كما كان له اهتمامات بالفلك وهوى بالغ له (فوجد فى الأدريسى خير معين له على أشباع رغبته من ذلك العلم) كما يقول بالنثيا فى كتابه « تاريخ الفكر الأندلسى » .

ويؤكد لنا المستشرق ميلر أن بلاط الملك روجر الثانى كان ملتقى الحضارتين وموئلا للحرية العلمية فى القرن الثانى عشر الميلادى ، كما يذكره الدكتور نقولا زيادة فى كتابه « رواد الشرق العربى » .

والحق أن الملك روجر الثانى قد لقى من مؤرخى العرب والمسلمين تقديرا عظيما ، وكانت الصورة التى صوره بها الشريف الأدريسى نفسه فى كتابه « نزهة المشتاق » والصورة التى صوره بها فى ايجاز المؤرخان ابن الأثير وابن كثير ، واللوحة البيانية التى صوره بها الأديب المؤرخ صلاح الدين الصفدى هى المنابع التى استقى منها الباحثون بعد ذلك ماكتبوه عن روجر الثانى ، فنرى المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدى يصف هذا الملك بأنه كان معجبا بحضارة المسلمين مولعا بثقافتهم ،

---

(١) وان كان يقال فى رواية أخرى انه ألفه برسم ولده غليالم الأول .

محبا لعـاداتهم ، حتى انه كان يلبس ملابسهم ، وكان رداؤه يطرز بحروف عربية .. ووجد الأدريسى من رعاية هـذا الملك المسيحى ماسـاعده على نشـاطه .

ونرى المرحوم محمد كرد على يصـفه بأنه جعـل فى بلاطه الأطباء والمنجمين وأرباب القـرائح من المسلمين . واحتفل بأصول العرب فى الجباية ، وكان يحسن العربية ويحبها . ونرى المرحوم عباس محمود العقاد يصوره بأنه رجل يريد أن يستكمل معارف عصره الجغرافية فلم يجد من يعتمد عليه فى ذلك غـير الشريف الأدريسى .

وقد يقال أن رغبة روجر الثانى فى أن تعمـل له خريطة باسمه وبرسمه هى رغبة تنعكس فيهـا رغبات الحـكام الشرقيين حين يريدون تخليد أسمائهم بامثال هذه الأعمال . وقد يقال ان روجر الثانى الفرنجى النورماندى قد حاول هنا أن يتشـبه بملوك الشرق فى بلاطاتهم ، ولكن ما من شك أنها كانت رغبـة رفيعـة عالية يغلفها فكر رفيع . والا فانه قد تشبه بملوك العرب والمسلمين فى قصورهم وأبهتهم وأرديتهم وترفهم ، ولكنه مع ذلك تشبه بعقلاء الملوك فى ميلهم الى العلم ، وأخذهم بناصر المعرفة . وهـو تشبه يرفع من مقدار تقديرنا لهذا الرجل الذى كسب العلم من ورائه أربح نصيب .

كيف عرف روجر الإدريسي وكيف كان يحترمه ؟

تصادفنا فى تاريخ الشريف الأدريسى مسألة غامضة تحتاج الى جلاء ، ولاتزال تثير كثيرا من الأسئلة حولها ، وهى : كيف عرف الملك روجر الثانى الشريف الأدريسى ، وكيف وصل الى سمعه نبأ ذلك الجغرافى العربى ؟ ومن الذى أخبره به وحدثه عنه فاهتم الملك به واستدعاه اليه واستقدمه الى بلاطه وكلفه انجاز الخريطة المشهورة وكتابه الجغرافى المشهور ؟

ان الذين ترجموا للشريف الأدريسى ذكروا أن الملك روجر الثانى النورمانى ملك صقلية قد استدعى الأدريسى من مقامه فى العدوة بالمغرب لكى يؤلف له كتابا فى الجغرافية . ويصف المستشرق الروسى أغناطيوس كراتشكوفسكى كيف رحل الأدريسى فى ٥٣٣ هـ ـ سنة ١١٣٨ م الى جزيرة صقلية وعبر اليها البحر فى ظروف يشوبها الغموض . ومما جعل هذه الرحلة

غامضة مكتنفة بالظلام الذى يحتاج الى تنـوير أن أحدا ــ حتى ولا الأدريسى نفسه ــ لم يعلن كيف غادر الأدريسى العدوة الغربية ميمما وجهه شطر صقلية التى كانت فى يد النورمان وتحت سلطان ملكهـا روجر الثانى ، وهو ثانى الفاتحين لهـا من النورمنديين ؟ لقد كان معقولا أن يغادر صقلية أهلها من العرب والمسلمين التماسا للخروج من سلطان حاكم نصرانى قـد يسىء معاملتهم ، وقد يتعصب عليهم ، وفرارا من حكم غير مسلم لاتؤمن غوائله وقد يتغير فيه الأمر من حاكم الى حاكم تبعا لرأيه الخاص فى معاملة رعاياه من المسلمين . وهـذا هو الذى حدث فعلا ــ كما أسلفنا القول ــ فأن كثيرا من العرب والمسلمين غادروا جزيرة صقلية فى خلال الفتح النورماندى قاصدين الى بر العدوة من الشـاطىء الأفريقى على السفن الكثيرة التى كانت لهم . وكانت مغادرتهم فى أول الفتح كثيرة ومتتاليـة هـربا من حكم جديد غريب لا يعلمون مدى عواقبه ، ولكنها أخذت بعد ذلك تقل شيئا فشيئا .

ومهما كان الأمر فان من غير المعقول أن يفـد عربى مسلم الى جزيرة أصبحت محكومة بملوك غير مسلمين . ولهـذا نحار فى تعليل السر الذى حدا بالشريف الأدريسى الى الاتجاه الى صقلية وظروفها هى ما نعلمه .

وهنا يطفر هذا السؤال : كيف سمع الملك روجر الثـانى

وهو فوق عرشه بصقلية ان هناك فى بر العدوة الأفريقى عـالما عربيا من أهل البيت اسمه الشريف الأدريسى ؟ وكيف عرف هذا الملك ـ مهما كان ملما بأخبار الدنيا فى عصره ـ أن هذا العالم العربى له اهتمام بالجغرافية ، وأنه ماهر فى هذا العلم وقادر على التأليف فيه بطريقة تعجب الملك ويرضى عنها ؟ وهل كان للأدريسى قبل استقدام روجر الثانى له مكان بارز فى علم الجغرافية مع أنه لم يكن قد سبق له قبل ذلك التأليف فى هذا العلم ؟ وقد يكون استدعاء روجر الثانى للشريف الأدريسى لو كان لهذا الأخـير مشاركة فى التصنيف الجغرافى تجعل الملك النورماندى على علم به . ولكنه لم يؤثر عنه اشـتهار قبل سفره الى صـقلية بعلم الجغرافية . ولم يذكر لنـا الشريف الأدريسى فى المقدمة التى وصلت ألينا من كتابه « نزهة المشتاق » ما يشير الى كيفية قيام الصلة بينه وبين روجر الثانى ، ولا كيف اسـتدعاه الملك الى بلاطه ، ولا كيف عرض عليه تأليف كتاب فى الجغرافية . وكـل ماذكره الشريف الأدريسى عن الملك روجر الثانى قوله عنـه فى المقدمة : (فمن بعض معارفه السنية ، ونزعاته الشريفة العلوية ، أنه لما اتسعت أعمال مملكته ، وتزايدت همم أهل دولته ، وأطاعته البلاد الرومية ، ودخل أهلها تحت طاعته وسلطانه ، أحب أن يعرف كيفيـات بلاده حقيقة ، ويقتلها يقينـا وخبرة ، ويعلم حـدودها ومسالكها بر وبحرا ، وفى أى أقليم هى ، وما يخصها من البحار

والخلجان الكائنة بها ، مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار ..)
وواضح أن هذا الكلام لا يحل لنا مشكلة التساؤل عن كيفيه تعرف الأدريسى الى روجر الثانى ، ولا كيفية استدعاء الملك له . لابد أن يكون فى هذا اللقاء — أو وراء هذا التلاقى — شخص ثالث هو الذى قام بدور الوسيط بين الرجلين ، وهو الذى ملأ أذن الملك الصقلى بأخبار عن هذا العالم العربى الذى قد يكون عونا لروجر على ما هو فى سبيل القيام به من اظهار أثر جغرافى خالد يقرن باسمه ، ويقدم برسمه .

ونحن نعلم أن جزيرة صقلية كانت ملجأ لبنى حمود الأدارسة حين انتهت دولتهم فى الأندلس ، وأن بعض أمراء الأدارسة من بنى حمود قد اتخذها له وزرا بعد خروجه من أوطانه . والشريف الأدريسى هو واحد من أبناء هذه الأسرة العلوية ، وقد كان جده ادريس الثانى أحد ملوك بنى حمود . فلا يستبعد أن يكون هذا الرجل هو الوسيط الذى ربط مابين روجرالثانى والشريف الأدريسى . وهنا يطفر سؤال آخر ؟ هل كان الأدريسى حين استقدمه روجر الثانى فى « سبتة » بالعدوة الأفريقية . ثم خرج منها مجيبا دعوة الداعى ؟ أم كان مارا بصقلية فى أحد أسفاره ورحلاته ، فرفع هذا الوسيط نبأه الى الملك روجر الثانى فاستدعاه هذا الى بلاطه ؟ وسواء أكانت الدعوة أم الاستدعاء من صقلية

الى الشريف فى وطنه العربى المغربى أم وهو على أرض صقلية، فأن الدعوة قد تمت فعلا والتقى الرجلان .

ويسوقنا هذا الى مسألة خطيرة أثارها المستشرق البولندى لفيتسكى Lewicki وهى أن اهتمام روجر الثانى بالشريف الأدريسى لم يكن بسبب علمه بالجغرافية ، وأنما بسبب شخصه كعضو من بيت الأدارسة المندثر فى الأندلس يمكن أن تقوم فى نفسه مطالبة بالعرش . فاستغل روجر هذه الشخصية التى قد تنفعه يوما ما فى تحقيق أهدافه فى غزو الأندلس ليتكىء عليه ، ويستند اليه ، ويتخذه ذريعة للغزو الذى كان يحلم به لاشباع غرضه فى التوسع غربى « البحر الأبيض المتوسط » (١) ، بعد أن دان له جزء لا بأس به من شرقى البحر . ولا نعلم أحدا غير ليفيتسكى قد أثار هذه القضية الغريبة . ولعلنا نتساءل : لماذا لم يمض روجر الثانى فى تحقيق هدفه الذى زعمه هذا المستشرق البولندى ؟ وما الذى صرفه عن استغلال الناحية السياسية فى الشريف الأدريسى واللعب بهذه الورقة التى كان يظنها رابحة ، الى استغلال الناحية العلمية عند الأدريسى . ولا تذكر الدوائر المعاصرة لروجر الثانى شيئا عن هذا الافتراض المزعوم . ويعلل ليفتيسكى وجهة نظره فى هذا الافتراض بأن مكانة الأدريسى لم تكن قد تقررت بعد كعالم جغرافى حتى يستدعيه الملك النرمندى

(١) اسمه الصحيح : البحر المتوسط ، وكان يسمى قديما بحر الروم .

للمشاركة في اقامة صرح لعلم الجغرافية تحت رعايته ، بل انه لم يكن قد اشتهر يومئذ كرحالة وجواب أقطار . ومهما كان من أمر هذا الاستدعاء الذى لم تعرف الى الآن بواعثه الحقيقية ولا كيفيته، فأن الشريف الأدريسى كان — كما يقرر الدكتور محمد محمود الصياد — مثالا للتعاون العلمى (١) .

ويفترض الدكتور حسين مؤنس أن يكون هذا الوسيط الذى قام بالتعارف بين روجر الثانى والأدريسى هو أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم بن حمود أحد أبناء الأدارسة النازلين فى صقلية ، فوقف على ما عند الأدريسى من العلم بالجغرافية والطب (فقدمه الى رجار الثانى ، أو تحدث اليه فى شأنه ، فأعجب به رجار ، ووجد فيه طلبته ، فسأله أن يقيم عنده ويعمل معه ..)(٢)

ولقد كان الأدريسى موضع الاحترام والرعاية والتقدير عند الملك روجر الثانى وفى بلاطه . وقد أراد الملك أن يطمئنه على مقامه فى صقلية فى أمن الملك وحمايته ، فقال له : « أنت من بيت الخلافة ، ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ، ومتى كنت عندى أمنت على نفسك» . ويروى لنا الصفدى فى كتابه « الوافى بالوفيات » كيف رحب روجر الثانى بالأدريسى حين

---

(١) كتاب « أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوربية » — بقلم جماعة من علماء العرب — القاهرة سنة ١٩٧٠ — الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .

(٢) مجلة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد — المجلدان ٩ ، ١٠ ص ٢٨١ .

وفد الى بلاطه : (فلما وصل اليه أكرم نزله ، وبالغ فى تعظيمه) والمبالغة فى التعظيم هنا هى عادة فطر عليها الملك روجر الثانى فى لقائه مع العلماء والمفكرين ، وان كنا نظن أن نصيب الادريسى منها كان غير قليل . ولا يكتفى روجر الثانى بالتوقير والتعظيم الأدبى ، بل يشفع ذلك بالرعاية المادية ، والمساعدة المالية السخية. فحين رضى الأدريسى بالمقام قرب روجر الثانى لتحقيق فكرته (رتب له كفاية لا تكون الا للملوك) . ولعل الملك لاحظ فى هذا قدر الأدريسى العلمى من ناحية ، وقدره الأدبى بكونه من بيت الأدارسة المشهورين فى حكم الشمال الافريقى والأندلس من ناحية أخرى . فان حفيد الملوك من بنى حمود بالأندلس لابد أن يلقى من المساندة المادية والأدبية ما هو جدير بمثله . ولم يكتف روجر الثانى بهذا بل زاد فى التكريم خطوات ، فكان الأدريسى — كما يقول الصفدى فى الوافى — (يجىء اليه راكب بغلة، فاذا صار عنده يتنحى له عن مجلسه ، فيأبى ، فيجلسان معا) . وقد نقل المرحوم محمد كرد على الفعل « فيأتى » بالتاء ، وهو تحريف من النسخ ، وصوابه « فيأبى » — أى فيرفض التنحى عن مجلسه ، وهو أدب من الأدريسى ورثه عن آبائه الأكرمين .

ولم تفت هذه الرعاية التى بذلها روجر الثانى للادريسى واحدا من المؤرخين والباحثين . وهى رعاية بلغ من قيمتها أنها دلت الباحثين عليها . وقد أشار اليها الأستاذ العالم الهندى المعاصر

نفيسى أحمد فى كتابه عن « جهود المسلمين فى الجغرافيا » . كما أشار اليها المرحوم أحمد زكى باشا فى مقال له بمجلة المقتطف شهر مارس سنة ١٩١٢ عن جغرافية الشريف الأدريسى ذكر فيه أنه « قد بلغ ريشار — أى روجار أو روجر — من اكرامه له أنه كلما دخل عليه هرع لاستقباله عند الباب ثم أجلسه الى جانبه على سرير الملك ، حتى اذا ما أتم المحاضرات معه وأفاده بما أراد ثم هم بالخروج شيعه الملك بنفسه الى عتبة القصر » . وقد نقل صاحب « معجم المطبوعات العربية والمعربة » هذا النص عن مقال أحمد زكى باشا بالمقتطف . ولا ندرى المصدر الذى اعتمد عليه المرحوم أحمد زكى فى وصف هذه الرعاية والحفاوة والتشييع ، وقد يكون تصرف فى نص صلاح الدين الصفدى الى هذا النص الذى لم نعثر عليه فى مرجع يعول عليه من المراجع القديمة .

ويشير جرجى زيدان فى أيجاز الى تقدير روجر الثانى للأدريسى فيقول فى « تاريخ آداب اللغة العربية » : (ونزل — يعنى الأدريسى — على روجر الثانى صاحب صقلية فأجله وقربه لسعة علمه ..)

بقى أن نصحح هنا وهما وقع فيه أحد أساتذة التاريخ فى جامعة عين شمس ، فقد ذكر فى بحث جيد له عنوانه (دور العرب فى كشف أفريقيا) نشر بمجلة « عالم الفكر » التى تصدر عن

حكومة الكويت — العدد الرابع ، مارس سنة ١٩٧١ — أن الأدريسى (جغرافى عربى أقام فى صقلية فى الفترة من سنة ١١٠٠ م — ١١٦٦ م فى بلاط الملك روجر الثانى أحد ملوك النورمان) والواقع أن الأدريسى أقام فى صقلية منذ أن وفد عليها بدعوة من روجر الثانى سنة ١١٣٨ م المقابلة لسنة ٥٣٣ هـ . أى بعد أن بلغ الثمانية والثلاثين من عمره . أما التاريخان اللذان ذكرهما الدكتور جمال زكريا قاسم صاحب البحث المشار اليه فهما عام مولد الأدريسى سنة ١١٠٠ م وعام وفاته سنة ١١٦٦ م فكأن الكاتب هنا ذكر عامى الميلاد والوفاة ، وليسا هما بدء دخول الرجل صقلية وخروجه منها ، بل هما بدء حياته كلها ونهاية عمره فى سنة ١١٦٦ م . والذى نصححه هنا هو فترة اقامة الأدريسى فى صقلية ، فهى من سنة ١١٣٨ الى حين وفاته ، لا من سنة ١١٠٠ م كما جاء فى بحث الدكتور جمال زكريا .. أما تحقيق مولد الأدريسى ووفاته فموعدنا بهما الفصل القادم .

تحقيق الميلاد والوفاة

يذكر لنا كراتشكوفسكى فى خلال الفصل الجيد الذى كتبه عن الأدريسى فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » أن الشريف الأدريسى ولد بمدينة سبتة فى عام ٤٩٣ هـ المقابل لسنة ١١٠٠ م « فيما يبدو » . وقد نقل هذا التاريخ عن المستشرق الألمانى (١) زيبولد المتوفى سنة ١٩٢١ م ، والذى حرر مادة « الأدريسى » فى دائرة المعارف الاسلامية . وقد نقل المستشرق الأسبانى « بالنثيا » هذا التاريخ الهجرى لمولد الأدريسى فى كتابه « تاريخ الفكر الأندلسى » الذى صدرت ترجمته بقلم الدكتور حسين مؤنس سنة ١٩٥٥ . وجرى المؤلفون والمحققون ورجال الأعلام ومعاجم المؤلفين وفهارس المخطوطات على اتخاذ هذا التاريخ موعدا لميلاد الشريف الأدريسى ، لا يكاد يختلف منهم

(١) Seybold وهو مستشرق ألمانى توفى سنة ١٩٢١ ، وله اهتمامات كثيرة بالادريسى .

واحد . حتى العلماء الأجانب انفسهم ارتضوا هذا التاريخ واتفقوا عليه ، ومن لم يضعه منهم بالتاريخ الهجرى وضع ما يقابله من التاريخ الميلادى وهو سنة ١٠٩٩ — ١١٠٠ م . كما فعل المستشرق الايطالى « الدو ميبلى » (١) فى كتابه المشهور : (العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى) .

وقد قبل المغفور له الأمير شكيب أرسلان هذا التاريخ دون مناقشة أو اعتراض وهو المعروف بكثرة تحقيقه وتدقيقه فى مثل هذه الأمور . ولو أن هذا التاريخ كان محل شك لرأينا الأمير شكيبا يتصدى لتصحيح ما فيه من خطأ ، أو ازالة ما به من ريب .

ولا ندرى المصدر العربى الذى نقل عنه المستشرق زيبولد هذا التاريخ فأننا لا نعلم مؤرخا عربيا قديما تعرض لذكر التاريخ الذى ولد فيه الأدريسى ، حتى صلاح الدين الصفدى الأديب المؤرخ المشهور والمتوفى سنة ٧٦٤ هـ وصاحب معجم « الوافى بالوفيات » المشهور فى كتب التراجم ، لم يذكر لنا تاريخ مولد الأدريسى فى الفصل الذى دونه فى ترجمته . وكذلك أغفله حاجى

(١) Aldo Mieli أحد وكلاء الجمعية الدولية لتاريخ العلوم وقد ترجم كتابه الى العربية سنة ١٩٦٢ بقلم الدكتورين محمد يوسف موسى ، وعبد الحليم النجار .

خليفة صاحب « كشف الظنون » وان كان اهتمامه فى أغلب الحالات بذكر الوفيات .

واذا كان تاريخ ميلاد الشريف الأدريسى موضع اتفاق بين الذين ترجموا له أو أشاروا اليه فى القديم والحديث فأن مكان ميلاده ـ وهو مدينة سبتة ـ ليس موضعا لخلاف بين المؤرخين والمترجمين . وما قال أحد ممن ترجموا له بأنه ولد فى غير « سبتة » . وهو اجماع يؤكد لنا الاجماع على تاريخ مولده . الا أنه لفت نظرنا أن كتاب « المنجد فى الأدب والعلوم » ـ وهو قسم المعارف العامة من معجم المنجد ـ وهو يعرف بالشريف الأدريسى ، ذكر لنا أن الرجل ولد بمدينة « سبتة بالأندلس » ، وهو وهم من المؤلف ، فان مدينة سبتة ليست من بلاد الأندلس ولا هى من أرضها فى أوربة ، ولكنها من بلاد المغرب وعلى الشاطىء الافريقى المقابل للشاطىء الأوربى . واذا كانت «سبتة» قد انتزعت من يد مراكش والمغرب وضمت الى أسبانيا منذ قرون فأن ذلك لا يغير من موقعها الأفريقى شيئا . وفى كتابنا هذا فصل قائم بذاته عن مدينة سبتة التى انجبت للعالم الاسلامى ، بل للعالم كله ، هذا العلم الجغرافى الشامخ الذى يعد بلا ريب من أعلام الجغرافيين المسلمين .

على أن الذى يلفت نظر الباحث فى سيرة الشريف الأدريسى هو ذلك الخلاف الشديد بين مؤرخيه ومترجميه على تاريخ

وفاته . ونلحظ هذا الخلاف واضحا سواء أكان التاريخ لوفاته بالتقويم الهجرى أم الميلادى . وهو خلاف يؤكد لنا موت الرجل فى غربة بعيدا عن الأهل والأوطان . وسنعرض بعد قليل لمكان وفاته وهو أيضا ليس موضع اتفاق بين المؤرخين والباحثين .

ويبدو لنا أن بعض المتحدثين عن الشريف الادريسى وخاصة من العرب المحدثين قد آثروا أن يتخلصوا من الخلاف فى تاريخ الوفاة باغفال الاشارة مطلقا الى عام وفاته ، ولعلهم ارتضوا بهذا أن يكونوا على جانب أمين بدلا من التعرض لتواريخ وسنوات مختلفة هى فى ذاتها محل خلاف بين المؤرخين .. وممن أغفل ذكر تاريخ وفاة الشريف الأدريسى : الدكتور فؤاد صروف فى كتابه « الرواد » الذى صدر عن مجلة المقتطف المحتجبة ، والدكتور زكى محمد حسن فى كتابه « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » وهو كتاب جيد على ايجازه ، والمرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى كتابه « المجددون فى الاسلام » مع أنه كان حريصا كل الحرص على أن يذكر تاريخ ميلاده بالعامين الهجرى والميلادى ، والمرحوم الأستاذ أحمد أمين فى كتابه « ظهر الاسلام » والأستاذ عبد الله بن العباس الجرارى من علماء الرباط فى كتابه « تقدم العرب فى العلوم والصناعات » والمرحوم عباس محمود العقاد فى كتابه المشهور « أثر العرب فى الحضارة

الأوربية » والدكتور نقولا زيادة فى كتابه « رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى ، والمستشرق بارتولد (١) فى كتابه « رواد الحضارة الاسلامية » الذى ترجمه الى العربية المرحوم حمزة طاهر .

على أن بعض الباحثين ذكر تاريخ وفاة الادريسى بالتاريخ الميلادى لا غير ، ومنهم عرب لا عذر لهم فى ذلك كالمرحوم الأستاذ قدرى حافظ طوقان الذى جعل تاريخ وفاة الأدريسى سنة ١١٦٦ م فى كتابه المشهور « العلوم عند العرب » ص ١٨٦ . وكالأديب الباحث جلال مظهر فى كتابه « مآثر العرب على الحضارة الأوربية » ، وقد جعل تاريخ وفاة الشريف الأدريسى سنة ١١٨٠ م (٢) . أما بعض الأجانب الذين اقتصروا على تاريخ وفاة الادريسى بالتقويم الميلادى فمنهم «الدو ميبلى» المستشرق الايطالى الذى جعل وفاته سنة ١١٦٦ م .

ومن الطريف أن نعرض فى هذا الفصل للروايات والأقوال المختلفة فى تاريخ وفاة الشريف الأدريسى . ففى تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان حـ ٣ نرى أن تاريخ وفاة الأدريسى سنة ٥٤٨ هـ ، وهو تاريخ غريب ، ولا ندرى من أين أخذه زيدان وعن أى كتاب نقله . ومن عجب أن الدكتور شوقى

(١) Bartold — وقد توفى سنة ١٩٣٠ .

(٢) وقد جاء هذا أيضا — أعنى ١١٨٠ م — فى كتاب « المستشرقون » للاستاذ نجيب العقيقى .

ضيف لم يناقش هذا التاريخ أو يصححه فى الطبعة الأخيرة لكتاب جرجى زيدان التى حققها وأضاف اليها تعليقات كثيرة مفيدة سنة ١٩٥٨ م ، مع أنه فى كتاب له عنوانه « الرحلات » صدر عن دار المعارف سنة ١٩٥٦ قد جعل تاريخ وفاة الأدريسى سنة ٥٦٢هـ

والحق أن السنة التى ذكرها جرجي زيدان لوفاة الأدريسى — وهى سنة ٥٤٨ هـ — هى تاريخ وفاة الملك روجر الثانى الصقلى الذى ألف له الأدريسى كتابه « نزهة المشتاق » . ويؤكد هذه الحقيقة أكثر المصادر التاريخية المهتمة بتاريخ هذا الملك النورمانى الصقلى ، وخاصة كتاب «شذرات الذهب » لابن العماد الحنبلى ، فقد جاء فيه فى أحداث سنة ٥٤٨ هـ قوله : (وفيها — أى وتوفى فيها — رجار الفرنجى صاحب صقلية ، هلك فى ذى القعدة بالخوانيق وامتدت أيامه ..) .

وجاء فى كتاب « المسلمون فى صقلية » أن وفاة الادريسى فى سنة ٥٦٨ هـ ، وقد نقل صاحب « الأعلام » هذه الرواية ، ولكنه ارتضى الرواية الراجحة التى تقول انه توفى سنة ٥٦٠ هـ المقابلة لسنة ١١٦٥ م ، ولا ندرى عمن أخذا هذا التاريخ . أما المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ صاحب كتاب « تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين » فقد بعد بتاريخ وفاة الأدريسى الى سنة ١١٧٥ م وتوافقها سنة ٥٧٠ من الهجرة ، ولم يذكر لنا بالطبع معتمده فى هذا التاريخ . أما المستشرق الروسى

كراتشكوفسكى فقد ذكر أن وفاة الشريف الادريسى سنة ٦٥٠ هـ المقابلة لسنة ١١٦٠ م . وهو من أوهام الطبع وأخطاء المطبعة كما يبدو ، فان صحة ٦٥٠ هـ هى ٥٦٠ هـ ، وصحة السنة الميلادية المقابلة هى ١١٦٥ م لا سنة ١١٦٠ م كما يتضح للمحقق المقابل بين التواريخ .

وقد جاء فى بقية المصادر العربية المعتمدة أن تاريخ وفاة الشريف الأدريسي هو سنة ٥٦٠ هـ ، ويكاد يكون هذا هو أصح التواريخ وأقربها الى الصواب . وقد ارتضى هذا التاريخ الأمير شكيب أرسلان فى « الحلل السندسية » وخير الدين الزركلى صاحب « الأعلام » وعمر رضا كحالة صاحب « معجم المؤلفين » ، والمرحوم فؤاد سيد مصنف الجزء الرابع من «فهرس المخطوطات المصورة » الصادر عن معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية سنة ١٩٦٤ صفحة ١٨٦ .

أما الذين ذكروا تاريخ وفاة الأدريسى بالتقويم الميلادى فقد وقع بينهم خلاف كذلك ، مثل ماوقع فى التاريخ الهجرى . فيذكر الأديب جلال مظهر فى كتابه « مآثر العرب على الحضارة الأوربية » أن وفاته سنة ١١٨٠ م المقابلة لسنة ٥٧٦ هـ ، وهو تاريخ يبعد ستة عشر عاما عن التاريخ المتعالم المعروف ، ويذكر كرامرز المستشرق الهولندى أن وفاته سنة ١١٥٦ م كما فى مقدمة الدكتور مقبول أحمد الهندى لكتاب « وصف الهند

وما يجاورها من البلاد » للأدريسي ، وتقابل هذه السنة سنة ٥٥١ هجرية . ويذكر مؤلف القسم الموسوعى من معجم « المنجد » أن وفاة الشريف الأدريسى سنة ١١٥٣ م ، وهى تقابل سنة ٥٤٨ هـ . وقد تأكد لنا قبل سطور أن هذه السنة هى تاريخ وفاة الملك روجر الثانى الصقلى لا تاريخ وفاة الأدريسى . وقد وقع مؤلف « المنجد » فى الوهم الذى وقع فيه جرجى زيدان من قبل .

ولعل أقرب التواريخ الميلادية الى وفاة الادريسى هو ما ذكره المستشرق زيبولد فى مادة الادريسى «بدائرة المعارف الاسلامية» حيث جعله سنة ١١٦٦ م ، وهو قريب من الصواب اذ أن سنة ٥٦٠ هـ تقابل سنة ١١٦٥ ميلادية . وكذلك ماجاء فى معجم لاروس الفرنسى حيث جعل وفاة الأدريسى سنة ١١٦٤ م ، وهى تقابل عند المستشرق زامباور (١) سنة ٥٦٠ هـ كما جاء فى ذيل كتابه المشهور : « معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى » المطبوع سنة ١٩٥١ .

ولعل أعجب الأقوال فى تاريخ وفاة الأدريسى ماذكره الحسن ابن الوزان المعروف باسم ليون الافريقى العلامة الجغرافى المغربى من رجال القرن السادس عشر الميلادى ، فقد ذكر أن الأدريسى

---

(١) هو المستشرق النمسوى Zambaur ، المتوفى سنة ١٩٤٩ ، وقد ترجم كتابه الى العربية بقلم الدكتور زكى محمد حسن ولفيف من زملائه

توفى فى صقلية سـنة ٥١٦ هـ ، وهو تاريخ غير معقـول ، لأن المعروف أن الادريسى دخـل صقليه سنه ٥٣٣ هـ المقابلة لسنة ١١٣٨ م فكيف تكون وفاته قبل هذا التاريخ ؟ ومن هنا بادر المستشرق الفرنسى دى سـلان المتوفى سنة ١٨٧٨ الى تصحيح هذا الوهم الى سنة ٥٦٠ هـ .

ويسوقنا كلام ليون الأفريقى عن وفاة الأدريسى فى صقلية الى خلاف آخر حول المكان الذى لقى فيه الأدريسى ربه ، فيقول المستشرق كراتشـكوفسكى انه توفى بمدينة سـبتة بالمغرب ، ويرجح الدكتور حسين مؤنس فى بحث له جيد عن الادريسى أنه مات فى صقلية بعد مبارحة بالرم بقليل ، وينفى أى دليل على أنه عاد الى المغرب أو ذهب الى أى بلد اسـلامى آخر بعد ذلك (صفحة ٢٨٥ من مجلة « معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد » المجلدان التاسع والعاشر) .

وسواء مات الأدريسى فى جزيرة صقلية ،أم فى سبتة ، أم فى أى أرض أخرى غيرهما فقد توسد باطن الأرض التى ذرعهـا طولا وعرضا كاشـفا النقاب عن أسرارها ومعالمهـا وكنوزها وطبيعتها .. وهنا تستوى كل تربة ، وتتسـاوى كل حفرة ، وما أصـدق الشـاعر أحمد شـوقى حين قال فى رثاء المرحوم عبد الخالق ثروت الذى مات غريبا فى فرنسة ونقل جثمانه الى مصر :

يموت فى الغاب أو فى غيره الأسد كل البلاد وساد حين تتسد

لمحات من سبتة
المدينة التي ولد فيها الإدريسي

شهدت مدينة سبتة بالمغرب مولد الشريف الأدريسى سنة ٤٩٣ هـ على أصح الأقوال التى تدور حول مولد هذا الرجل ومكان ولادته . وقد سجل لنا ياقوت الحموى فى معجمه ضبط هذه المدينة ، وأنها بفتح السين ، وقد تكسر . والسبت لغة هو القطع . وسبتة بتاءين آخرهما تاء التأنيث على وزن « فعلة » . وهناك فى فلسطين بلدة اسمها «سبت» ، وهى بين طبرية والرملة عند عقبة طبرية . وقد يتوهم بعضهم أن « سبتة » فى الأندلس ، ولكن الصواب أنها من بلاد المغرب . ويقول صفى الدين بن عبد الحق البندارى فى التعريف بها : (سبتة بلفظ الفعلة المرة الواحدة من السبت ، وهو القطع ، بالفتح ، وقيل بالكسر ، بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، مرساها أجود مرسى على البحر ، وهو على بر يقابل جزيرة الأندلس ، على طرف الزقاق . مدينة

حصينة تشبه المهدية التى بافريقية ، لأنها ضاربة فى البحر ، داخلة كدخـول كف على زند (١) ..) وتصـفها كتب الجغـرافية والموسوعات بأنها بلدة بحرية من أعمال مراكش ، على مضيق جبل طارق ، وعلى مسيرة عشرة أميـال جنوبى جبل طارق ، أو أربعين ميلا شمال غربى تطوان (٢) . والبلدة محصنة ، بل انها أهم المراكز الأسبانية الحصينة .

وأشارة ياقوت وابن عبد الحق الى أن السبت لغة هو القطع تحمل معنى السبب فى تسمية المدينة بهذا الاسم .وهذا جائز لو ان اسم البلدة كان عربى الأصل فيكون اشتقاقه من السبت بمعنى القطع ، باعتبار أنهـا مقطوعة من الجانب الشرقى ، لأن البحر يكتنفها من ثلاث جهات . ونرى ابن عذارى المراكشى صـاحب « البيان المغرب » يعزو هذا الاسم الى « سبت » وهو ولد من أحفاد سام بن نوح . ولكن الأدريسى نفسه يفصل فى هذه القضية بما ترتاح اليـه النفس من سبب معقول فهـو ينسبه الى اللفظ اللاتينى (سابيتوم) . على أن أرجح الأقوال ما قيل من أنها سميت بهذا الاسم الذى أطلقه الرومان على الهضبات التى شيدت عليها البلدة . ومن هنا نعرف أن سبتة مدينة قديمة ، وأنها شـهدت

(١) مراصد الاطلاع ، على أسماء الامكنة والبقاع ، ج ٢ ص ٦٨٨ .

(٢) تطوان : مدينة بشمالى المغرب وتشتهر بالصناعة . وقد احتلتهـا أسبانيا سنة ١٩١٥ ، وكانت عاصمة المنطقة الخليفية قبل استقلال البلاد سنة ١٩٥٦ .

قرونا من العصر المسيحى ، كما شهدت فترة غير قصيرة من عهد ما قبل المسيح . وكان يحكم سبتة أيام الفتح العربى للأندلس الكونت يوليان الذى أفلح فى الاستقلال بالأمر فيها . ويوليان هذا هو الذى تذكر المصادر القديمة أنه أمد القائد المسلم طارق ابن زياد بكل الوسائل والمعدات التى مكنت العرب من عبور البحر الى أسبانيا والاستيلاء عليها وادخالها فى حوزة المسلمين. ولم تنقض بضع سنوات على فتح العرب للأندلس حتى دخلت سبتة المغربية فى نطاق حكمهم ، فاستولوا عليها واستقروا بها .

وقد تعرضت سبتة خلال تاريخها الطويل لعدد من الحوادث والتيارات والغارات حتى من قبائل البربر أنفسهم . ففى منتصف القرن الثانى الهجرى نكبت سبتة بغزو بربر طنجة لها واجبارهم العرب على الخروج منها . وقد خربت البلدة فى هذه الغزوة تخريبا تاما ، حتى ليروى البكرى الجغرافى المؤرخ الأندلسى أنها ظلت خرابا تعمرها الوحوش مدة . ولم تهدأ سبتة منذ ذلك العهد، فقد ظلت موضعا للنزاع بين مغاربة الأندلس وولاة المغرب ، وكان الأمويون أصحاب قرطبة بالأندلس حريصين على الاحتفاظ بها فى أيديهم ـــ على الرغم من وقوعها فى أرض المغرب ـــ لأنها بموقعها الجغرافى الفريد كانت المنفذ الى أفريقية ، ومن هنا سورها عبد الرحمن الناصر بسور منيع من الحجارة .

وتعاقب المرابطون والموحدون على حكم سبتة فى حوادث

كثيرة لا محل هنا لذكرها . الا أنها بعد عدد من الاضطرابات والفتن وقعت فى يد الحفصيين من بنى مرين . ولكنها لم تبق طويلا فى يد المرينيين اذ اتجهت أنظار البرتغاليين للاستيلاء عليها . فأرسل ملكهم يواءو الأول حملة عليها ٨١٨ هـ سنة ١٤١٥م انتهت باستيلاء البرتغال عليها على الرغم من المقاومة الباسلة التى بذلها قائدها العربى . وحين ضم فيليب الثانى الأسبانى بلاد البرتغال الى أملاكه انتقلت سبتة بهذا الضم الى حوزة الأسبان .. واحتفظ هؤلاء الأسبان بها وحملوا البرتغاليين على الاعتراف بها لهم بمقتضى معاهدة لشبونة سنة ١٦٦٨ م .

وبالرغم من محاولات المسلمين لاسترداد سبتة وانتزاعها من يد الأسبان فان هذه المحاولات الباسلة لم تفلح . واحتلها الانجليز من سنة ١٨١٠ الى سنة ١٨١٤ حتى يتخلصوا من الحكم الأسبانى الذى كان فيه نقص لسيادتهم فى منطقة جبل طارق ، ولكن أسبانيا استردت سبتة من جديد ، وعادت فى حوزتهم . وازدادت استماتة المسلمين فى استعادة سبتة وردها الى ممتلكاتهم ، واستمرت أعمال العداء بين المراكشيين والأسبان . وأكدت معاهدتا وادى راس وتطوان فى النصف الثانى من القرن الماضى اطلاق يد الأسبان فى سبتة الى اليوم .

ويصادفنا فى كتاب « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » لأبى العباس الناصرى السلاوى المتوفى سنة ١٨٩٧ م نص طريف

فى كيفية استيلاء البرتغاليين على سبتة فى القرن الخامس عشر الميلادى يقول فيه : (وذكر صاحب نشر المثانى فى كيفية استيلاء البرتغال على « سبتة » قصة تشبه قصة قصيرة مع الزباء ، قال : « رأيت بخط من يظن به التثبت والصدق أن النصارى جاءوا بصناديق مقفلة يوهمون أن بها سلعا وأنزلوها بالمرسى كعادة المعاهدين وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة ثمانى عشرة وثمانمائة — ١٤١٥ م — وكانت تلك الصناديق مملوءة رجالا عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة ، فخرجوا على حين غفلة من المسلمين ، واستولوا على البلد ، وجاء أهله الى سلطان فاس مستصرخين له ، وعليهم المسوح والشعر والوبر والنعال السود رجالا ونساء وولدانا ، فأنزلهم بملاح المسلمين ، ثم ردهم الى « الفحص » قرب بلادهم لعجزه عن نصرتهم ، حتى تفرقوا فى البلاد ، والأمر لله وحده .. وسمعت من بعضهم أن الذى جرأ النصارى على ارتكاب تلك المكيدة هو أنهم كانوا قد قاطعوا أمير سبتة على أن يفوض اليهم التصرف فى المرسى ، والاستبداد بغلتها ، ويبذلوا له خراجا معلوما فى كل سنة . فكان حكم المرسى حينئذ لهم دون المسلمين . ولو كان المسلمين هم الذين يلون حكم المرسى ما تركوهم ينزلون ذلك العدد من الصناديق مقفلة لا يعلمون ما فيها . والله أعلم بحقيقة الأمر) (١) ..

---

(١) الاستقصا : للسلاوى ، ج ٤ ص ٩٢ .

ولعل من المناسب هنا — تكريما لهذه البلدة المنجبة من قديم الزمان — أن نذكر هنا فى هذا الفصل أسماء طائفة من الرجال الذين أنجبتهم هذه المدينة فحملوا فى أسمائهم شرف الأنتساب اليها ، ونذكر هؤلاء الذين أنجبتهم وولدوا تحت سمائها وفوق أرضها ولكن أسماءهم لم تحمل النسبة اليها ، ثم نضيف اليهم أسماء طائفة أخرى من العلماء وفدوا عليها ، أو أقاموا بها ، أو أقرأوا القراءات فى معاهدها ومساجدها ، أو تولوا القضاء فيها ، أو عاشوا فيها الى أن دفنوا فى ثراها وطوتهم قبورها .

فمن أهل سبتة الذين ولدوا فيها وحملت أسماؤهم النسبة اليها ، أو لم يولدوا فيها ولكنهم وفدوا عليها وأقاموا بها زمنا فانتسبوا اليها كذلك : أحمد بن محمد بن اسماعيل القيسى المعروف بالسبتى ، وأصله من أشبيلية بالأندلس ، ولكنه رحل الى سبتة سنة ٣٧٠ هـ ، وسافر الى المشرق ثم عاد ثانية الى سبتة فانتسب اليها وتوفى بها سنة ٤٢٩ هـ . ومنهم محمد بن أحمد ابن هشام اللخمى السبتى الأديب اللغوى النحوى ، وله من الكتب «لحن العامة» و «شرح مقصورة ابن دريد» و «تقويم اللسان (١) ، وتعليم البيان » . وقد ترجم له ابن الأبار فى « التكملة » ، والامام السيوطى فى « بغية الوعاة » وتوفى سنة

---

(١) فى البغية اسم هذا الكتاب « المدخل الى تقويم اللسان ، وتعليم البيان » ج ١ ص ٤٨ .

٥٧٠ هـ . ومنهم شمس الدين أبو عبد الله محمد السبتى ، وله « الغرر البهيــة ، فى شرح الرســالة الســبتية » ، وقد ترجم له البغدادى فى « ايضاح المكنون » ، وتوفى سنة ٦٩٨ هـ . ومنهم الحسين القوصى السبتى المفسر الفقيه . وقد ولد بقوص من صعيد مصر ، وتوفى بأسوان سنة ٦٨٢ هـ ، ولا ندرى العلة فى تلقيبه بالسبتى ، ولعل أصوله من سبتة (١) ، أو لعله نزل بسبتة فنسب اليها ، وهو صاحب « المختصر فى تفسير القرآن » للثعلبى ، وقد جمع الى النسبة السبتية التلقيب بالمعين . ومنهم محمد بن ابراهيم ابن غصن السبتى من العالمين بالقراءات، وقد جاور بمكة والمدينة، وتوفى بالقدس . وهو مشـــهور بكتابه « مختصر الكــافى فى القراءات » . وقد ترجم له المقرى فى « نفح الطيب » وابن الجزرى فى « طبقات القراء » ، وتوفى سنة ٧٢٣ هـ . ومنهم محمد بن على ابن هانى السبتى من رجال القرن الثامن الهجرى ، وقد اشتهر بالأدب والشعر والتاريخ والفرائض، ومن كتبه : « الغرة الطالعة، فى شعراء المائة السابعة » ، و « شرح تسهيل الفوائد » للامام ابن مالك فى النحو ، وقد ترجم له ابن حجر فى « الدرر الكامنة »، والسيوطى فى « بغية الوعاة » وتوفى سنة ٧٣٣ هـ . ومنهم يوسف ابن موسى السبتى الفقيه المالكى الحافظ، وأصله من مدينة سبتة، وتلقى العلم فيها ، وأقرأ بجامع باب السلسلة بمدينة فاس المغربية.

---

(١) ذكر الادفوى فى « الطالع السعيد » انه سبتى المحتد ، قوصى المولد

وله من المؤلفات « شرح رسالة ابن أبى زيد » فى فروع الفقه المالكى ، وهو شرحان : كبير ، وصغير . وتوفى فى ختام المائة السابعة سنة ٧٠٠ هـ . وقد ترجم له من المحدثين خير الدين الزركلى فى « الأعلام » ، وعمر رضا كحالة فى « معجم المؤلفين » .
ومنهم محمد بن أحمد الحسنى السبتى اللغوى النحوى الشاعر ، وله من المؤلفات « شرح مقصورة ابن حازم » ، وديوان شعر عنوانه « جهد المقل » و « شرح القصيدة الخزرجية » فى العروض والقوافى ، وتوفى بغرناطة الأندلسية سنة ٧٦٠ هـ وهو من مواليد سبتة المغربية . ومنهم محمد بن على بن معلى القيسى السبتى الفقيه من رجال القرن السابع الهجرى ، ولا يعلم تاريخ وفاته ، ومن كتبه : « المناسك » ، وقد ذكره التنبكتى فى كتابه « نيل الابتهاج » (١) . ومنهم محمد بن عبد الحق الأنصارى السبتى من رجال القرن التاسع الهجرى ، وله مشاركات فى الأدب والشعر وقد ترجم له السخاوى فى « الضوء اللامع » ، وله من المؤلفات « شرح البردة » للأمام البوصيرى ، وتوفى سنة ٨٣٨ هـ . ومنهم ابراهيم الغافقى السبتى من رجال المائة الثامنة ، ترجم له ابن حجر فى «الدرر الكامنة» وابن العماد الحنبلى فى «شذرات الذهب» ، واليافعى فى « مرآة الجنان » ، وكان فقيها نحويا عالما بالفرائض. ومن عجيب الأمر أنه ولد بأشبيلية الأندلسية ، وتوفى بمدينة

---

(١) نيل الابتهاج ، بتطريز الديباج ، ص ٢٣٠ .

سبتة المغربية ، فحمل فى اسمه النسبتين : الاشبيلى ، والسبتى ، وتوفى سنة ٧١٦ هـ .

وهناك طائفة من العلماء أصلهم من سبتة ، ولكنهم لم يحملوا النسبة اليها فى أسمائهم ، بل حملوا نسبة أخرى ، كالنسبة الى قبائلهم العربية الكبرى ، أو النسبة الى مدينة أو اقليم آخر اشتهروا به ، فتنوسيت « سبتة » مدينتهم الأصلية مع أنهم من مواليدها . ومن هؤلاء السبتيين بالمولد لا بالنسبة : ابراهيم ابن جعفر اللواتى المعروف بابن الفاسى ، وقد اشتهر بالعلم والزهد والتقشف . وهو من أهل سبتة وتوفى سنة ٥١٣ هـ . ومنهم اسماعيل بن حمزة بن زكريا الأزدى ، وقد غلب عليه الاشتغال بأصول الديانات . وهو من مواليد سبتة ، ولم يذكر ابن بشكوال فى « الصلة » تاريخ وفاته . ومنهم عبد الله بن حمو ، وقد كتب القاضى أبو الفضل بن عياض بخطه الى ابن بشكوال أنه من أهل سبتة ، وتوفى سنة ٤٧٣ هـ . ومنهم عبد الله بن على — أو ابن يعلى — المعافرى ، وهو من أهل سبتة ، وكان حجة فى الفقه والنحو والبلاغة مقدما فيها ، وتوفى سنة ٤٨٦ هـ ، وهو خال القاضى أبى الفضل بن عياض . ومنهم قاسم بن محمد بن هشام الرعينى ، وذكر القاضى ابن عياض أن أصله من سبتة ، وتوفى سنة ٤٤٨ هـ . ومنهم محمد بن على بن عبد الله الأموى المعروف بابن الشيخ ، وهو من أهل سبتة وكان شيخ الحديث فيها فى

وقته ، وقد جمع الى العلم الخير والصلاح ، وتوفى فى حدود سنة ٤٠٠ هجرية على ما ذكره صاحب « الصلة » . ومنهم عياض ابن موسى بن عياض اليحصبى من أهل سبتة على ما ذكره ابن بشكوال ، وتعلم بقرطبة — وهو فى هذا يشبه الشريف الأدريسى — وتولى القضاء بسبتة ، وتوفى بمراكش مغربا عن وطنه سنة ٥٤٤ هـ . ومنهم يوسف بن حمود بن خلف الصدفى ، من أهل سبتة وولى القضاء فيها ، وقد جمع الى الفقه الأدب والشعر وتوفى سنة ٤٣٨ هـ .

وهناك طائفة من العلماء رحلوا الى سبتة من المشرق أو المغرب أو الأندلس ، وأقاموا بها ، وتولوا فيها القضاء أو التدريس والاقراء ، ولكنهم لم يحملوا فى أسمائهم الانتساب اليها ، ومع هذا ظلت سبتة تحتفظ بذكرى وفودهم عليها ، واقامتهم فيها ، وتدريسهم بها . ومن هؤلاء : أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الأنصارى الشارقى ، فقد دخل سبتة بعد جولات فى العراق وفارس والأهواز ومصر والأندلس . وقد اشتهر بمواعظه التى تذيب القلوب ، وكثيرا ما كان يبكى فى خلال وعظه فيسيل دموع سامعيه وتوفى بشرقى الأندلس فى نحو سنة ٥٠٠ هـ . ومنهم حجاج بن قاسم بن هشام الرعينى ، أصله من أهل المرية بالأندلس ، ثم رحل الى الشرق ، وصار الى سبتة فسكنها ، وتوفى سنة ٤٨٠ هـ . ومنهم عبد الله بن أدريس المقرىء ، وهو سرقسطى

الأصل ، ثم وفد على سبتة ، فسكن بها وتصدر فى جامعها للاقراء وتوفى سنة ٥١٥ هـ . ومنهم الشاعر الضرير على بن عبد الغنى الفهرى الحصرى القيروانى صاحب قصيدة : « ياليل الصب متى غده » المشهورة التى حظيت بمعارضات كثيرة لها فى القديم والحديث . وممن عارضها من المحدثين أحمد شوقى ، ومحمود بيرم التونسى ، وبشارة الخورى ، ورشيد أيوب ، ومسعود سماحة ، والأمير نسيب أرسلان ، وفوزى المعلوف ، وخير الدين الزركلى ، وولى الدين يكن ، وجميل صدقى الزهاوى ، وأبو القاسم الشابى ، واسماعيل صبرى « باشا » وغيرهم . وقد دخل الحصرى القيروانى الأندلس ، ونزل سبتة بالمغرب ، وأقرأ بها القراءات فلقى اقبالا كثيرا ، وتهافتا على حضور دروسه . وفى سبتة زادت شهرته ، وطبقت الآفاق سيرته ، وراسل ملوك الطوائف بالأندلس ، ومدحهم ، كما اتصل بعلماء الأندلس وأدبائها ، وتوفى بطنجة سنة ٤٨٨ هـ .

ولقد شاء الله أن يكون الشريف الأدريسى من مواليد سبتة وأهلها الذين لم يحملوا فى اسمهم النسبة إليها . ولم يكن فى هذا وحده ، ولا بدعا من العلماء الذين ذكرنا بعضهم قبل ذلك على أنهم من أهل سبتة الذين لم ينتسبوا اليها . واذا كان بعض أولئك العلماء السبتيين بالمولد قد حمل فى اسمه نسبة الى بطن قديم من بطون العرب ، أو الى مدينة أخرى غير مدينة المولد ، أو الى

اقليم آخر ،فأن الشريف الأدريسى قد حمل نسبة أجداده وآبائه الأدارسة ، فيقال له : الأدريسى ، نسبة الى جده الأعلى أدريس ، مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب فى القرن الثانى الهجرى . ويقال له : الحمودى ، نسبة الى آبائه بنى حمود الأدارسة الذين أسسوا ملكا بالأندلس فى عهد ملوك الطوائف . وقد سماه بعضهم : الشريف الصقلى ، نسبة الى جزيرة صقلية التى وفد عليها وأقام بها قريبا من الملك روجر الثانى النورمندى وبدعوة منه ، لأنجاز عمله الجغرافى العظيم . ولكننا لا نعلم مؤرخا أو باحثا نسبه الى بلد مولده : سبتة ، ولم نر فيما بين أيدينا من مصادر من لقبه بالشريف السبتى . وهكذا حرمت مدينة سبتة — بالانتساب — اسم هذا الرجل الكبير ، وان كانت لم تحرم شرف انجابه واتحاف الدنيا بعمله العلمى الجليل ..

مع بعض معاصري الشريف الإدريسي

نستطيع أن نتمثل صورة لعصر الشريف الأدريسى من خلال بعض معاصريه فى القرن السادس الهجرى . ولن نذهب الى الشرق العربى لنتبين تلك الملامح ، بل نستطيع أن نتلمسها فى الرجال الذين كانوا يعيشون فى صقلية والأندلس والمغرب فى ذلك العصر. واذا كانت قد حدثت بعض أحداث كبرى فى رقعةالمملكة العربية الاسلامية كلها ما بين مشرق ومغرب خلال ذلك العصر ، فان الذى يهمنا هنا فى هذا الفصل هو الرجال الذين شملهم عصر الأدريسى فى المحيط العربى الاسلامى القريب منه ، وهو محيط صقلية والأندلس وبلاد المغرب . ولن يفوتنا أن نشير هنا الى أن القرن السادس الهجرى — وهو القرن الذى أدرك الأدريسى منه ستة عقود من الزمان — كان يزدحم فى الشرق برجال برزوا فى الأدب والشعر واللغة والتاريخ والعلوم الاسلامية والعلوم الدخيلة

من أمثال ابن منير الطرابلسى الشاعر ، والطغرائى صاحبة اللامية المشهورة ، ودلال الكتب ، وابن التعاويذى ، ونجم الدين الهرثى ، وأبى اسحاق الغزى ، والارجانى ، والابيوردى ، والقاضي الفاضل ، والحريرى صاحب المقامات ،والجواليقى اللغوى صاحب «المعرب» ، وابن الشجرى صاحب «الأمالى» ، وابن الدهان ، وكمال الدين الانبارى صاحب «نزهة الألباء» ، والميدانى صاحب « مجمع الأمثال » ، والأمام الزمخشرى صاحب « الكشاف » فى تفسير القرآن « وأساس البلاغة » فى اللغة ؛ ونشوان بن سعيد الحميرى اليمنى صاحب « شمس العلوم » والعماد الأصفهانى صاحب « الخريدة » ، وأسامة بن منقذ الأمير العربى الرحالة المؤرخ صاحب « الاعتبار » ، والسمعانى صاحب « الأنساب » ، وابن القلانسى المؤرخ ، وابن عساكر الدمشقى الحافظ المؤرخ صاحب «تاريخ دمشق» ، وعمارة اليمنى الشاعر المؤرخ صاحب « تاريخ اليمن » ، و « النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية » ، وابن الجوزى المؤرخ صاحب « المنتظم » ، والشهر ستانى صاحب « الملل والنحل » وغيرهم من أعلام الفكر والثقافة فى القرن السادس .

كان القرن السادس الهجرى يموج بهؤلاء الرجال وكثيرين غيرهم فى المشرق ومصر على الرغم من ازدحام الحوادث الجسام على العرب والمسلمين كسقوط صقلية فى يد النورمان ، والحروب

الصليبية والأخطار المحدقة بالمسلمين فى الأندلس ، وسقوط بعض العواصم العربية الكبرى فى الأندلس .

أما المغرب والأندلس فلم يكن أقل حفولا بالعلماء والرجال البارزين ، ومنهم الشعراء والأدباء ورجال اللغة ، وعلماء الجغرافيا والرحالون ، ورجال السياسة والقيادة ، والفلاسفة .

وكانت جزيرة صقلية ذاتها — على الرغم من سقوطها فى يد النورمان — لا تزال تجود ببعض الرجال الذين كانوا امتدادا لأسلافهم العظماء على تلك الأرض الطيبة ومنهم ابن القطاع السعدى الذى ولد فى صقلية ، وتعلم فيها ، ولما دخلها النورمان فاتحين عز عليه أن يبقى فيها بعد ما حل بها ، فرحل الى مصر ، واتخذ منها وطنا ثانيا له وعاش فيها الى أن أدركته منيته سنة ٥١٥ هـ ، وله من الكتب كتاب « أبنية الأفعال » ، « والعروض البارع » ، وكتاب « الشافى فى القوافى » . ومن رجال صقلية فى القرن السادس الذى عاش فيه الادريسى ، الأديب المؤرخ ابن ظفر الصقلى المتوفى سنة ٥٦٥ هـ ، وقد كان قريبا بالمقام من الشريف الأدريسى ، وان كنا لا نعلم شيئا عن الصلة بينهما ، فقد كانا متعاصرين ، ولكن انشغال الأدريسى بالمهمة الجغرافية التى كلفه اياها الملك روجر الثانى ربما حجزه عن الاختلاط باخوانه العرب من أهل الجزيرة وسكانها . وله كتاب مشهور عنوانه

« سلوان المطاع » فى الأدب والتاريخ ألفه لبعض القواد العرب فى صقلية سنة ٥٥٤ هـ أى قبل وفاة الأدريسى ببضعة أعوام .

وقد عاش الشاعر الصقلى أبو محمد عبد الجبار بن حمد يس سبعة وعشرين عاما من القرن السادس ، حيث توفى سنة ٥٢٧ هـ ، وكانت وفاته قبـــل دخول الأدريسى صقلية عام ٥٣٣ هـ بست سنوات ، ولا ندرى ان كان الرجلان تلاقيا قبل ذلك فى مكان آخر خارج صقلية . والمعروف أنه شـــهد صقلية تسقط فى يد النورمان بلدا اثر بلد ، وهو فى هذا غير الشريف الأدريسى الذى دخل صقلية فى عهد الملك روجر الثانى بعد أن توطدت فيهـــا أقدام الفاتحين ..

وهناك الشاعر المصرى السكندرى نصر الله بن قلاقس الذى نشأ بالاسكندرية بعد ولادته فيهـــا سنة ٥٣٢ هـ . وكان مولعا بالأسفار وركوب البحار ، فقصد بالزيارة جزيرة صقلية ســـنة ٥٦٣ هـ ـــ أى بعد وفاة الأدريسى بثلاث سنوات . ومن هنـــا لم يقدر للرجلين أن يتلاقيا . ولكنه التقى بقائد سياسى عربى فى الجزيرة اسمه « أبو القاسم بن الحجر » ، وكان زعيم المسلمين وقائد العرب فى صقلية فصنف له كتابا باسمه عنوانه « الزهر الباسم، فى أوصاف أبى القاسم» واختص ابن قلاقس بمدائحه هذا القائد الزعيم المحنك الذى كان ينافسه فى الزعامة مسلم آخر . وتدل الصفات التى خلعها ابن قلاقس على ممدوحه هـــذا فى

صقلية أنه كان رجلا من رجال القلم يدبر الأقاليم ـــ أى الأقسام العسكرية ـــ ولعله كان من رجال ديوان الطراز وديوان الأنشاء بعد أن أبقاهما النورمان على حالهما كسابق العهد بهما فى العصر الاسلامى .

ومن مدائح ابن قلاقس لأبى القاسم بن الحجر الزعيم العربى فى صقلية قوله :

وبيمنـــاك طير يمن وســعد
أصــفر الظهر أســود المنقار
قلم دبر الأقــاليم فالــكتب
به من كتــائب الأقــدار
ياطراز الديوان والملك أصبحت
طــراز الديوان والأشــعار

ومن شــعراء الأندلس المعاصرين للشريف الأدريسى أبو بكر محمد بن قزمان المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، أى قبل وفاة الأدريسى بخمس سنوات . وكان ابن قزمان اماما للشــعر العامى المعروف بالزجل فى عصره

أما الشاعر الأندلسى ابن خفاجة فقد أدرك الثلث الأول من القرن السادس، حيث توفى سنة ٥٣٣ هـ، وكانت اقامته فى شرق

الأندلس حيث كانت صقلية قريبة الى شرقى البلاد ، أما الشاعر الأندلسى الآخر ابن عبدون فقد أدرك عشرين عاما من القرن السادس حيث توفى سنة ٥٢٠ هـ ، وهو صاحب القصيدة الرائية التى رثى بها ملوك بنى الأفطس ، ومطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر
فما البكاء على الأشباح والصور ؟

وكان القرن السادس يحفل بحفنة من الرحالة والجغرافيين العرب منهم أبو عبد الله المازنى الغرناطى المتوفى سنة ٥٦٥ هـ — أى بعد وفاة الأدريسى بخمسة أعوام ، وهو من مواليد غرناطة ، وقد رحل الى الشرق فزار مصر ، وبغداد وحلب وخراسان ، وكان آخر مطافه بدمشق حيث مات فيها . وهو صاحب كتب فى الرحلات وعجائب المخلوقات . وله كنيتان اشتهر بهما : أبو حامد ، وأبو عبد الله ، وكانت هاتان الكنيتان ، بما صحبهما من طول اسمه ، سببا للخلط فى التعريف به عند بعض الباحثين . وقد ترجم له كراتشكوفسكى ، وجرجى زيدان ، والدكتور حسين مؤنس تراجم متفاوتة بين الايجاز والتوسط .

أما محمد بن أبى بكر الزهرى فقد عاش فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، وقد بلغ من جهالة أمره أنه أطلق

عليه اسم « مؤلف المرية (١) المجهول » ويرجع ذلك الى اللبس والغموض الذى يدور حـول مخطوطات مصـنفه . وقد اهتم الزهرى فى كتابه بأوصاف الأندلس والمغرب وجزيرة صـقلية ، وكان للأندلس من كتابه أوفى نصيب . وفى ذلك العصر أيضـا عاش الفقيه أبو بكر محمد بن العربى المتوفى سنة ٥٤٣ هـ ، واذا كانت قد غلبت عليه ناحيتا الفقه والقضاء فان كتاب رحلته المفقود يصور لنا ناحية من اهتمامات علماء ذلك العصر بأدب الجغرافية الوصفية والرحلات. وكثيرا ما نرى ابن خلدون، والمقرى صاحب « نفح الطيب » ينقلان عنه . ويبدو أن الرجل كان مولعا فى كتاب رحلته بالحديث عن صنوف العجائب والغرائب ، ولعله وجد فيها مجالا لارضاء أذواق القراء الذين يؤثرون أخبار العجائب .

ولن يفوتنا هنـا أن نذكر اسم ابن جبير الكنانى الرحالة المشهور فى القرن السادس ، وقد مات فى أواخر ذلك القرن ، أى بعد الادريسى ببضعة وعشرين عاما . وفى رحلته من الأوصاف مايدل على الدقة والتنبه والملاحظة القوية . وله فى وصف صقلية وبلدانها أوصاف بالغة الدقة ، ويبدو من خلال حديثه عنها — فى خلال رحلته اليها — اساه البالغ على ما صار اليه أمر المسـلمين والعرب فى تلك البلاد ، ولاينى فى أكثر من موضـع من رحلته يدعو الله أن يرد هذه الأرض الى أصحابها المسلمين ..

(١) المرية Almeria بلد مشـهور بالاندلس ، وهى مرفأ على البحر المتوسط ، وكانت قديما من مدن مملكة غرناطة .

ولما كان التاريخ صنوا للجغرافيا ومكملالها ، فأننا لن يفوتنا في هذا المقام أن نذكر أسماء بعض مؤرخين من الأندلس في القرن السادس ، ومنهم الفتح بن خاقان الأشبيلي المتوفى سنة ٥٣٥ هـ وصاحب كتابي « قلائد العقيان » و « مطمح الأنفس » ، وابن بسام الشنتمري صاحب كتاب «الذخيرة» المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ، وأبو القاسم السهيلي صاحب كتاب « الروض الأنف » في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، وابن بشكوال المؤرخ المتوفى سنة ٥٧٨ هـ وصاحب كتاب « الصلة » الذي جعله ذيلا على كتاب « تاريخ علماء الأندلس » لابن الفرضي ..

كتاب نزهة المشتاق

ان كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » هو الكتاب الذى عقد للأدريسى هذه الشهرة التى يتمتع بها بين الغربيين والشرقيين على السواء . وعلى الرغم مما كان للكرة الأرضية من الفضة التى صنعها ، وما كان لخريطته ومصوراته من شهرة عالية وقيمة علمية كبيرة ، فأن « نزهة المشتاق » ظل محتفظا بمكانته ، ولا يزال الى الآن نبعا ينهل منه كل غارف . ويحكى لنا كثير من الباحثين السبب فى تأليف هذا الكتاب . ويلخص لنا « بالنثيا » السبب بقوله : (ولما كان رجار قد رغب فى أن يكون لديه كتاب فى صفة الأرض ، مؤلف عن مشاهدة مباشرة لا مستخرج من الكتب ، فقد تصدى الأدريسى لوضع ذلك الكتاب، وانتخب نفرا من أذكياء الرجال ، وبثهم فى شتى النواحى يصاحبهم الرسامون ، وجعل يتلقى ما يعودون به ويسجله أولا

بأول ، وفرغ من كتابه سنة ٥٤٨ هـ — ١١٥٤م ، ثم أضاف اليه آجزاء أخرى فيما بعد ، وسماه «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق». ويعرف كذلك بالكتاب الرجارى ..) ويبدو من هـذا النص انه مأخوذ من المقدمة التى كتبها الأدريسى نفسه لكتابه . وفيهـا يصرح الادريسى بأنه لما اتسعت أعمال مملكة الملك روجر وأطاعته البـلاد الرومية .. أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ، ويقتلها يقينا وخبرة ، ويعلم حدودها ومسالكها برا وبحرا وفى أى اقليم هى وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها ، مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار فى الأقاليم السبعة .

وأقدم طبعة عربيـة لهـذا الكتاب فى سنة ١٥٩٢ م بمطبعة الميديتشى بمدينة رومة تحت عنوان طويل هو « نزهة المشتاق ، فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق » . وهذه الطبعة نادرة الوجود ، ولعلها أقدم طبعات الكتاب بالعربية. وتضم مكتبة باريس نسخة خطية كاملة من هذا الكتاب .

ولنزهة المشتاق أكثر من مخطوطة واحدة موزعة فى أنحـاء متفرقة من العـالم ، وبين بعض المخطوطات فروق بالنقص أو الزيادة أو الاضطراب ممـا يفضى الى الحكم بأن الأدريسى قد ترك مسودات عديدة للكتاب . وكان للمستشرقين فضـل اظهار هذا الكتاب وطبعه وتحقيقه ، فطبع دوزى القسم المختص بالمغرب والسودان ومصر والأندلس فى مدينة ليون سنة ١٨٦٤ ، ويذكر

جرجي زيدان — وعنه نقل المرحوم قدرى حافظ طوقان — أن روزن (١) ملر طبع القسم الخاص بالشام وفلسطين سنة ١٨٢٨ فى مدينة ليبسك ، ولا ندرى شيئا عن هذه الطبعة أكثر من هذا . وطبع آمارى (٢) الايطالى القسم المختص بايطاليا سنة ١٨٨٥ فى مدينة روما ، مع الشروح والتعاليق . وطبع كوندى (٣) الاسبانى الأصل العربى مع ترجمة أسبانية ، وهو القسم الخاص بالأندلس وكان ذلك فى مدريد سنة ١٧٩٩ م . ونشر ساقدرا (٤) الاسبانى القسم الخاص بالأندلس ومصر والمغرب والسودان — وهو الذى نشره دوزى من قبل — ولكنه أعاده مصححا ومعدلا ، وكان ذلك فى مدريد سنة ١٨٨١ .

وقد اهتم بعض الرجال بترجمة نزهة المشتاق الى غير العربية. فقام العالمان المارونيان جبرائيل الصهيونى ، وحنا الحصرونى — وهما من أهل لبنان — بترجمة قسم من الكتاب الى اللغة اللاتينية ، وطبعت الترجمة فى باريس سنة ١٦١٩ م . وقد ورد اسم العالمين المارونيين محرفا فى بعض المصادر العربية بناء على خطأ فى الترجمة والتعريب ، فذكره المرحومان الدكتور محمد يوسف موسى والدكتور عبد الحليم النجار باسم : جبرييل

---

(١) Rosen Muller مستشرق ألمانى توفى سنة ١٨٣٥ .

(٢) M. Amari مستشرق ايطالى توفى سنة ١٨٨٩ .

(٣) Conde مستشرق اسبانى توفى سنة ١٨٢٠ .

(٤) Sayedra مستشرق اسبانى عاش فى نهاية القرن الماضى

سيونيتا ، وجون هسرونيتا !! وهو من مضحكات الترجمة والنقل ، فأن هذا المسخ هو اسمهما بالأفرنجية ، أما اسمهما بالعربية فكما ذكرناه . ومن العجيب أن الدكتور حسين مؤنس وقع فى هذا الخلط ، ولكنه حرف هسرونيتا الى : هزرونيتا !!. ولو أنه حقق بعض الشيء لاستبان له الوجه الصحيح فى اسم الرجلين . أما الدكتور فؤاد صروف مؤلف كتاب (الرواد) فقد ذكر الاسمين صحيحين هكذا : جبرائيل الصهيونى الأهدنى المتوفى سنة ١٦٤٨ ، والخورى يوحنا الحصرونى من جبل لبنان .

وقد ذكرنا فى فصل آخر شيئا عن ترجمة « نزهة المشتاق » الى الفرنسية على يد العالم الفرنسى آميديه جوبير (١) : وذكرنا بعض ما قيل فيها من الأخطاء والبعد عن الفهم ، وكونها معيبة غير أمينة . وقد تعرض لنقدها وبيان عيوبها نفر من المستشرقين ، وأشار زيبولد ، وألدومييلى . وكراتشكوفسكى والأمير شكيب أرسلان وغيرهم الى أخطائها .

وقد بان لنا من مطالعاتنا الكثيرة حول الأدريسى أن نزهة المشتاق فى بعض أقسامها قد ترجمت الى اللاتينية ، والأسبانية ، والألمانية ، والروسية ، والفنلندية ، والفرنسية ، والايطالية ، والنمساوية . ولا ندرى ان كان براندل المستشرق السويدى قد

---

(١) هو المستشرق الفرنسى A. Joubert المتوفى سنة ١٨٤٧ وعلى الرغم من اهتماماته الكثيرة بالشرق وتاريخه الا انه كان متسرعا فى أعماله

ترجم قسما من النزهة الى اللسان السويدى أم لم يفعل ، بل اقتصر على بحثه الخاص بسورية وفلسطين من خلال وصف الأدريسي .

وعلى الرغم من الاسم الطويل لعنوان كتاب الأدريسى ، فأننا نرى الأيجاز يدخل اليه عند بعض المراجع ، ففى كتاب « الوافى بالوفيات » للصفدى يذكر باسم (كتاب رجار) ! وهو من باب الغرائب فى الأسماء ، فقد نسب الى غير مؤلفه ، بل نسب الى الملك الذى أوصى به . ويذكره مؤرخنا ابن خلدون فى المقدمة باسم (كتاب رجار) أيضا ، وكأنه أخذ ذلك الاسم من الصفدى الذى كان سابقا له فى الوجود . ويذكره ابن خلدون غير مرة بهذا الاسم . ويسميه بالنثيا المستشرق الاسبانى باسم الكتاب الرجارى ، وهو هنا ينقل عن بعض المؤرخين . ويذكر كراتشكوفسكى الاسمين معا : كتاب رجار . والكتاب الرجارى . أما ما جاء فى بعض الكتب من أن اسمه « الكتاب الرجاوى » (١) بواو قبل الياء الأخيرة فهو من أخطاء الطباعة كما لا يخفى .

وعلى الرغم مما خدم به كتاب « نزهة المشتاق » فأنه لا يزال يحتاج الى عناية أكبر ، والى تحقيق أكثر ، والى معاودة النظر فى كثير مما نشر من نصوصه العربية التى تحتاج الى ضبط

---

(١) سمى بالكتاب الرجاوى فى كتاب « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » للدكتور زكى محمد حسن ، وهو خطأ مطبعى .

وتحقيق ومقابلة بين النسخ الخطية من الكتاب ومعارضة بينها . ويرى زيبولد ضرورة اعادة نشر كتاب الأدريسى الذى يعد اعظم مصنفات العصور الوسطى فى الجغرافيا، مع ترجمته وشرحه وعمل خرائط هامة له ، ويعتمد فى ذلك على المخطوطات المعروفة لنا من هذا الكتاب فى مكتبات باريس وأكسفورد وأستانبول . وبهذه المناسبة نذكر أن لنزهة المشتاق مخطوطتين فى باريس ، واثنتين فى أكسفورد ، وواحدة فى أستانبول . ويرى المستشرق الروسى كراتشكوفسكى أن طبع الكتاب كله كاملا لا يتيسر لاتساع مجال بحوثه ودراسته . ويؤكد لنا اقتناع العلماء بصعوبة العمل فى كتاب « نزهة المشتاق » كوحدة قائمة بذاتها ، وذلك لتعدد البلاد التى يصفها ، وتنوع المادة العلمية التى يأتى بها . وردد كراتشكوفسكى الرأى القائل بالاقتصار على دراسات محددة لكل قطر من الأقطار المختلفة . وذلك هو الاتجاه الذى يجرى عليه العمل الآن .

وقد يكون من الملائم هنا أن نذكر بأيجاز رأى العلماء الأجانب والعرب فى هذا الكتاب الذى يقول عنه « بالنثيا » المستشرق الأسبانى : (أن الكتاب حافل بالمعلومات الصحيحة فى الغالب ، ومادته وافرة عن البلاد الأوربية التى تسكنها شعوب نصرانية) . ويقول عنه الباحث الهندى نفيس أحمد : (والكتاب بالتأكيد هو أكبر نموذج بارز لانصهار المعلومات الجغرافية

القديمة مع المعلومات المتجددة) . وتقول دائرة المعارف الفرنسية : (ان كتاب الأدريسي فى الجغرافية هو أعظم وثيقة علمية جغرافية فى القرون الوسطى ..) ويقول عنه المرحوم الدكتور أحمد أمين فى كتابه « ظهر الاسلام » : (وألف الأدريسى فى الجغرافيا كتابه المشهور « نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق » وشحنه بالخرائط اللازمة التى تزيد عن الأربعين خريطة ، وكان أعظم كتاب فى الجغرافيا فى زمنه ، ولذلك ترجم الى اللغة اللاتينية وطبع ..) . ويقول عنه المرحوم الأستاذ عبد المتعال الصعيدى : (وهو أصح كتاب وضعه المسلمون فى علم الجغرافيا . وقد اشتمل على ماذكره المتقدمون فى هذا العلم ، وجمع اليه ما استفاده صاحبه من تلك الرحلات الطويلة . وكانت له فيها نظرات انتقادية تدل على سعة أفقه ، وتمكنه من الحقائق الأساسية لعلم الجغرافيا مثل كروية الأرض وغيرها) . ويقول عنه الدكتور زكى محمد حسن : (وطبيعى أيضا أن يمتاز كتاب الأدريسى بغزارة مادته فى جغرافية المغرب وصقلية مما يشهد له بأنه ساح فى تلك الآفاق . أما فيما يخص الشرق فقد نقل كثيرا عمن سبقه من المؤرخين ، ومع ذلك كله فأن ماكتبه عن مصر والشام وفرنسا وايطاليا وألمانيا والأراضى المطلة على البحر الادرياتيك يشهد بأنه أفاد كثيرا من سياحاته الخاصة أو سياحات غيره من الرواد ..) ونختم هذه

الآراء المنصفة برأى المستشرق الفرنسى دى سلان (١) الذى أبداه فى خلال بحث له نشر بالمجلة الأسيوية الفرنسية عدد أبريل سنة ١٨٤١ م يقول فيه : (ان كتاب الادريسى لا يمكن أن يوازن به أى كتاب جغرافى سابق له ، وان ثمة بعض أجزاء من المعمورة لايزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافى فى الأمور المتصلة بها).

ويجد القارىء فى غير هذا الفصل دفاعنا عن كتاب « نزهة المشتاق » بصدد ما اتهمه به بعض المستشرقين — وخاصة بالنثيا الأسبانى — من أنه يشتمل على بعض الخرافات .

---

(١) هو البارون الارلندى الاصل الفرنسى الجنسية De Slane المتوفى سنة ١٨٧٨ .

مؤلفات أخرى

ذكر الباحثون والمشتغلون بدراسة الأدريسى ، كتبا آخرى له غير « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » . ففى دائرة المعارف الاسلامية ينبهنا المستشرق زيبولد فى خلال المادة التى كتبها عن الأدريسى الى أن هناك كتابا للأدريسى صنفه للملك غاليوم الأول الذى خلف الملك روجر الثانى على حكم صقلية ، واسم هذا الكتاب « روض الأنس ونزهة النفس » . ويصف زيبولد هذا الكتاب بأنه ضخم، كما يذكر أن لهذا الكتاب اسما آخر هو كتاب « الممالك والمسالك » . ولم يبق من هذا المصنف الا مختصر فى مكتبة حكيم أوغلو على باشا بمدينة استنبول تحت رقم ٦٨٨ . ويزيد زيبولد فيقول أن أول من أشار الى هذا الكتاب المستشرق هورفتز عند ما كان ينقب فى مكتبات استنبول باحثا عن مخطوطات فى التاريخ .

ويذكر الدكتور احسان عباس فى كتابه « العرب فى صقلية »

اسم هذا الكتاب من كتب الادريسى ، ويقرر فى الهامش أنه نقل هذا عن «خريدة القصر» للعماد الأصبهانى . ولكنا لم نطلع على مخطوط الخريدة الذى يشتمل على هـذا النص . وأشـار الى « روض الأنس ونزهة النفس » أيضا الدكتور شوقى ضيف فى كتابه « الرحلات » ، ثم ذكره باسمه الآخر : المسالك والممالك ، كما فعل زيبولد فى مادة الادريسى بدائرة المعارف الاسـلامية . وأشار المستشرق الايطالى ألدو ميبلى فى كتابه «العلم عند العرب» الى كتاب « روض الأنس ، ونزهة النفس » هذا ، وذكر أنه لم يبق منه الا مختصر صـغير هو كتاب « روض الفرج ، ونزهة المهج » جمعه مصنف مجهول سنة ١١٩٢ م .

ونرى المستشرق الأسـبانى بالنثيا يذكر فى كتابه « تاريخ الفكر الاندلسى » أن الادريسى ألف كذلك « كتاب الممالك » الذى اعتمد عليه أبو الفدا . ولا نعلم نحن أن للشريف الادريسى كتابا فى الجغرافية باسم الممالك كما يذكر بالنثيا ، ولعله يقصد كتاب « المسالك والممالك » الذى هو عند زيبولد اسم آخر أو عنوان آخر لكتاب « روض الأنس ونزهة النفس » . ويشـير الدكتور فؤاد صروف فى كتابه « الرواد » ص ٤٦ الى كتـاب « روض الأنس ونزهة النفس » ويصفه بأنه أعم من كتاب «نزهة المشتاق » ، واستعان به أبو الفدا ، وسماه كتاب « الممالك » . ويذكر صروف أن هذا الكتاب لا وجود له الآن ، وان كان يقال

ان منه نسخة فى مكتبة باريس الملكية .. وعجيب أمر كتاب الممالك هذا ، فالمستشرق زيبولد يسميه . الممالك والمسالك ، وشوقى ضيف يسميه : المسالك والممالك ، بتقديم أحد اللفظين على الآخر ، والمستشرق بالنثيا يسميه كتاب : الممالك ، وفؤاد صروف يسميه كتاب الممالك .

ويجىء كراتشكوفسكى فيذكر كتاب « روض الأنس ونزهة النفس » هذا ، ويقرر انه فيما عدا العنوان لا نكاد نعرف عن هذا المصنف الا شذرات قليلة حفظها لنا فى القرن الرابع عشر أبو الفداء الذى أطلق على الكتاب عادة اسم « كتاب المسالك والممالك » . والحق أن كراتشكوفسكى قد نقل هذا الكلام عن رينو (١) الفرنسى فى كتابه المشهور عن أبى الفداء . ويكرر كراتشكوفسكى ماذكره ميبلى من أن « روض الفرج ونزهة المهج » . هو قعغة من كتاب روض الأنس ، أو الممالك والمسالك، كما وصفه بأنه يحتوى على أطلس كامل من ثلاث وسبعين خارطة، وقد عرف هذا المصنف فى الدوائر العلمية باسم الأدريسى الصغير، وذلك للتفريق بينه وبين كتابه الرئيسى المعروف باسم « نزهة المشتاق » .

ويذكر المرحوم قدرى حافظ طوقان أن للأدريسى كتاب

---

(١) هو المستشرق الفرنسى Reinaud المتوفى سنة ١٨٦٧ ومشاركاته فى الجغرافية العربية لا تنكر .

« روض الفرج ، ونزهة المهج » ، وهو مختصر لكتـــاب نزهة المشتاق .. هكذا قال المرحوم طوقان ، والمعروف ـــ كمـا قال الدوميلى ـــ أن « روض الفرج ونزهة المهج » هــو مختصر لكتاب : « روض الأنس ، ونزهة النفس » .

ونجد عند الدكتور حسـين مؤنس كلاما يلتقى مع ماذكره كراتشكوفسكى فيقول : (كتاب «روض الأنس ونزهة النفس» ، أو كتاب « المسالك والممالك » . ولم نعثر عليه ، ولكن لدينـا مختصرا له فى مكتبة حكيم أوغلو فى استامبول برقم ٦٨٨ . ولهذا المختصر عنوانان : أحدهما فى أوله وهو : « أنس المهج وروض الفرج» ، والثانى فى آخره ، وهو : «روض الفرج ونزهة المهج» ويسمى هـذا المختصر بالأدريسى الصـغير ، تمييزا له عن نزهة المشتاق الذى يسمى الأدريسى الكبير) (١) . كما يلتقى هـذا الكلام مع ما سبق أن سجلناه هنا من كلام المستشرق زيبولد فى دائرة المعارف الاسلامية .

وقد دخل الشريف الادريسى ميدان علم النبات ، فألف فيه كتابا عنوانه « الجامع لصفات أشتات النبات » . وقد ضمنه ذكر أنواع المفردات من الأشـجار والثمـار والحشـائش والأزهار والحيوانات والمعـادن ، مع تفسـير معجم أسمائها بالسريانيه

(١) مجلة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلدان ٩ ، ١٠ ص ٣١٩

واليونانية والفارسية واللاطينية والبربرية . وقــد جاء فى أوله :
(الحمد لله الذى أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا .
وبعد . فان أناســا من أهل زماننــــا يدعون ما لا علم لهم به ،
وينتسبون الى معرفة الحشائش والأشجار والمعادن والحيوانات
التى هى هيــولى الطب وعمدته ، ويزعمــون معرفة ما ترجمــة
الفاضل دياسقوريدوس فى كتابه ، وشرح مبهمه الى ما دونه من
ســائر الــكتب المؤلفة فى هــذا الفن .. ولما رأيت انهم خلطوا
وغلطوا ، صرفت نفسى ، وأوقفت همى ، فألفت عند ذلك هــذا
الكتاب ، ورتبت جميع أسمائه على نص حروف أبجد هوز ..) .

ويوجد من هــذا الكتاب نســـخة فى دار الكتب المصرية
ــــ ١٥٢٤ ــــ مصورة عن مكتبة الفاتح بأستنبول رقم ٣٦١٠ ،
كما أن منه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية .

وقد أشار « الدوميلى » الى أن للادريسى كتاب الصيدلة
المبدوء بمقدمة عامة تتسم بطابع البحث فى النباتات ، وكشف عنه
أخيرا فى مخطوط بمكتبة فى استنبول . وقد ترجم مايرهوف بعض
مقتبسات منه ، وقدم فكرة عامة عن الكتاب كله فى دراسة لعلم
النبات العام والصيدلة عند الأدريسى . كما أشار الى هذا الكتاب
أيضا المستشرق كراتشكوفسكى ، وذكر رأى مايرهوف فيه ،
وأنه لايخلو من بعض الأهميــة ، ولو أنه لا يمكن وضــعه فى
مرتبة واحدة مع المصنفات الممتازة فى هذا الباب كرسالة البيرونى.

ومن الطريف أنه لا يرتبط فى شىء باسم ثيوفراست الذى يرجع اليــه العرب عادة فى هــذا الفن ، أو بكتاب النبات المنســوب لأرسطو . ويلى مقدمة الكتاب وصف لثلاثمائة وستين نباتا لا يخلو من بعض القيمة من وجهة علم النبات Botany . وأشار الدكتور أحسان عباس الى كتاب « الجامع لأشتات النبات » ، ولم يقطع بأن الادريسى ألفه فى صقلية . وقد أشار ابن أبى أصيبعة فى كتابه « عيون الأنباء ، فى طبقات الأطباء » الى كتاب للأدريسى فى « الأدوية المفردة » ، ولم يذكر له غــيره من كتب الجغرافية والنبات ، لأنه اهتم بالكتب التى تدخل فى مجال الطب والأطباء . وقد أشار بالنثيا الى كتاب «الأدوية المفردة» أيضا ، ولعله نقل ذلك عن « عيون الأنبـــاء » . ولا ندرى كيف فات المستشرق كراتشكوفسكى أن يشير الى كتاب الأدوية المفردة للادريسى مع حرصه على ذكر كل شىء يتعلق بهذا العربى العظيم ؟

خريطة الإدريسي ومصوراته الجغرافية

ان الخريطة التى حفرت على اسطوانه من الفضـــة والتى صنعها الأدريسى بمعاونة روجر الثانى وتشجيعه هى غير الكرة من الفضة التى عفى عليها الزمان ولم يبق عليها ، بل أبقى على اسمها وبعض أوصافها . ويظهر أن الأدريسى وضع لكل قسم من أقاليم العالم السبعة خريطة خاصة ، بالأضافة الى الخريطة العامة التى اســـتخرج منهـــا « كونراد ميلر » طبعة كاملة نشرت فى استوتجارت ما بين عامى ١٩٢٦ ، ١٩٣١ .

ويحدثنا المستشرق الايطالى «الدومييلى» عن المرحلة الثالثة لصنع الخرائط الجغرافية العربية ، وهى المرحلة التى يمثلهـــا الجغرافى العربى الشريف الأدريسى . وتبدو فى هذه الخريطةالعناية بالجغرافية الرياضية ، كما أن الرسم فيها تتسع دائرته فلا يقتصر

على أقليم من الأرض أو على مجموع الأقطار الاسلامية ، بل يشمل كل العالم المعروف فى زمانه .

وحين نشيد هنا بذكر الأدريسى فى عمل هذه الخريطة المشهورة ، فلن ينسينا ذلك الاشادة بذكر روجر الثانى الذى شارك فى اعداد الخريطة الكبيرة للأدريسي ، والذى ساعد — بما له من سلطان الملك ووفرة المادة — على جمع المعلومات وتجميع المعارف الجغرافية التى استغلها الأدريسى واستخدمها فى صنع الخريطة .

وقد نالت خرائط الشريف الادريسى عناية كبيرة من دراسات المستشرقين ورجال البحث العلمى الجغرافى . وهى بالطبع فى مكان التقدير على الرغم مما وجه اليها من ملاحظات ونقدات . ولم يكن الأدريسى أول من صنع الخرائط الجغرافية من العرب والمسلمين. فقد سبقته فى ذلك جهود حين بدأ العرب برسم الخرائط فى صدر الدولة العباسية عقب ترجمة كتب الفلك والجغرافية الى اللغة العربية . وكان قياس العرض والطول هو الأساس الذى أقيم عليه أول رسم للخرائط العربية ، ولعل صاحب المبادرة الأولى فى هذا الميدان هو محمد بن موسى الخوارزمى من أكبر علماء الرياضيات فى عصر المأمون ، فأنه عين مواقع المدن والبحار بالدرجات الجغرافية المؤسسة على علم الفلك كما فعل بطليموس. وفى خطوة تالية لصنع الخرائط عند العرب أهملت درجات العرض

والطول .. وكانوا يجدون صعوبة فى تحـديد الأماكن بالأقيسة فاكتفوا بتعيين مواقع البلاد بالنظر الى الجهـات الأربع الأصلية بغض النظر عن تقدير الأبعاد بينها . ولم يكن الشـمال فى أعلى الخرائط ، والجنوب فى أسفلها ، والشرق فى يمينها ، والغرب على يسارها كما نجده فى الخرائط اليوم ، بل قد نجد الشمال فى أعلى زاوية اليمين ، ويقابله الغرب فى أعلى زاوية اليسار ، كمـا فى خريطة بين النهرين المنقولة عن الأصطخرى .

وفى خرائط الأدريسى نجد تطور عمـل الخرائط العربية فى ثالث مراحله . وبدت دقة رسم الشواطىء والأنهـار ، وتحديد درجات الطول والعرض ، ومطابقة الواقع الطبيعى . وعلى الرغم من مراعاة الادريسى لطريقة بطليموس فى رسم الخرائط فانه قد زاد عليه فى الدقة وارتفاع المستوى فى الأداء ، ويؤكد لنا هذه الحقيقة المستشرق الايطالى : ألدو ميبلى (١) .

وقد انضم كراتشكوفسكى الى الدوميبلى فى حسبان مرحلة الادريسى هى الأوج الذى بلغه فن رسم الخرائط الجغرافية عند العرب . وعلى الرغم من بعض المآخذ التى أخذت على خرائط الادريسى فان أطلسه يعد أهم أثر لعلم رسم الخرائط العربية . بل لعله أهم أثر لعلم الخرائط الجغرافية فى العصـور الوسطى

---

(١) العلم عند العرب ، ص ٣٩٤ .

بأجمعها . واذا كانت هذه الشهادة الأخيرة هى مافاه به المستشرق النمسوى « مجيك » من علماء القرن العشرين ، وقد نقلها عنه المستشرق الروسى كراتشكوفسكى ، فان هناك شهادة أخرى للمستشرق الفرنسى « ريسلر » الذى يقول فى كتابه « الحضارة العربية» : (.. ومصورات الادريسى التى تعترف بكروية الأرض كانت تتويجا لعلم المصورات الجغرافية فى العصر الوسيط ، بوفرتها ، وصحتها ، واتساعها) .

ولا يفتأ المستشرق الايطالى «الدوميبلى» يشيد بعمل العرب والادريسى خاصة فى تطوير علم صناعة الخرائط وتحسين ماوصل ألينا من بطليموس فى هذا الصدد . ما أكثر انصاف هذا المستشرق العميق البحث وهو يقول : (وبواسطة الدليل الجغرافى لبطليموس نفسه ، عرف العرب أيضا وضع الخرائط وضعا علميا مبنيا على تعيين الطول والعرض فى العناصر الجغرافية المختلفة ، حيث وصلوا بذلك — على يد الادريسى — الى تحقيق خطوة جديرة بالاعجاب حقا فى هذا الفن الذى هو فرع عظيم الأهمية من الجغرافية العلمية) (١) .

ويشير باحث هندى معاصر هو الأستاذ نفيس أحمد الى جهود الشريف الأدريسى فى ميدان تقدم صناعة الخرائط الجغرافية ،

---

(١) العلم عند العرب : الدو ميبلى ص ٤٦ .

ويصفه بأنه من غير شك من صناع الخرائط المشهورين (١) كما يشير فى موضع سابق من كتابه الى صنعه للقرص الذى يمثل نموذجا للعالم المعروف فى عصره ، مما أبرز مكانته بين صناع الخرائط المسلمين . ولا ينسى هذا الباحث المسلم أن يشير الى السبعين خريطة التى أعدها الأدريسى للمناطق الداخلية فى تقسيمه للأقاليم .

ويركز المرحوم قدرى حافظ طوقان حديثه عن الخريطة الجغرافية التى رسمها الادريسى ، ويجمع عناصر وصفها مما قرأه عنها فى كتاب الأستاذ عبد الله كنون المغربى عن الشريف الأدريسى، وما ورد خاصا بها فى كتاب « تراث الاسلام » ، ودائرة المعارف الاسلامية ، وما نشر من مقالات فى مجلات المقتطف ، والرسالة ، ويخرج بعد الوصف الدقيق للخريطة وتقسيم العالم فيها بأن علماء الجغرافيا والباحثين فى أوربا وأميركا قد قدروا عبقرية الادريسى فى رسم خريطته ، فقد حاول بتقسيمه الأرض الى الأقاليم السبعة اثبات درجات العرض وتحديدها ، وأنه أفلح فى هذه المحاولة الى حد بعيد (٢) .

وقد يكون أضبط فى التعبير عن الناحية الفنية من خريطة الادريسى أن ننقل هنا بعض ما وصفه بها المرحوم قدرى حافظ

---

(١) جهود المسلمين فى الجغرافيا ص ١٤٣ .

(٢) العلوم عند العرب لقدرى حافظ طوقان . ص ١٨٨ .

طوقان قائلا : (لقد قسم الادريسى كلا من الأقاليم السبعة الى عشرة أقسام متساوية من جهة الغرب الى جهة الشرق . وهـذا التقسيم وان لم يدل على درجات الطول فانه يسهل القيام بالمهمة ، ويعين على رسم الخريطة .

وقد وضع لكل قسم من هذه الأقسام السبعين خريطة خاصة، زيادة على الخريطة الجامعة . وهذه الخرائط السبعين ـــ كذا ـــ محفوظة فى مختلف النسخ الموجودة من كتاب نزهة المشتاق، ومنها استخرج ميلر خريطة الأدريسى ونشرها بالحروف اللاتينية) (١).

وظلت خريطة الادريسى قرونا غير قليلة مرجعا لعلماء أوربا فى علم الجغرافية . ويؤكد هذا ما قاله جوتيه : (انه لم يكن لأوربا مصور جغرافى للعالم الا ما رسمه الادريسى ، وهو خلاصة علوم العرب فى هذا الفن ، ولم يقع الادريسى فى الأغلاط التى وقع فيها بطليموس فى هذا الباب) .

والحق أنه لم تكن أوربا وحدها هى المستفيدة من خريطة الادريسى الكبرى وخرائطه الأخرى السبعين ، فقد ظلت رائدا لصناع الخرائط العرب بعد ذلك . ولاشك أن ازدهار عمل الخرائط والمصورات الجغرافية فى تونس وشمال أفريقية بعد القرن الخامس عشر الميلادى يرجع الى متابعة القوم هناك لصنعة

---

١) العلوم عند العرب : قدرى حافظ طوقان . ص ١٨٨ .

الأدريسى وعمله الكارتوجرافى . ويشـــير كراتشكوفسكى الى أجيال ثمانية أو تسعة من أسرة الشرفى الصفاقسى بتونس شاركت فى صنع خرائط جغرافية تأثر فيها أفرادها بطريقة الأدريسى فى عمل الخرائط .

وفى القرن التاسع عشر يظهر مؤرخ مغربى اسمه أبو القاسم ابن أحمد الزيانى — توفى سنة ١٨٣٣ م — فيقوم على الرغم من كبر سنه برسم خريطة الأدريسى بدائية كل البداءة ، ولكنه يحذو فيها حذو الشريف فيقسم العالم الى سبعة أقاليم . وعلى الرغم من سذاجة هذه الخارطة فانها تمثل الاتجاه الى تقليد الادريسى فى صنع الخرائط بعد أن مضت عليه القرون .

أما خريطة الأدريسى التى يصور بها منابع النيل فيشير اليها غير واحد من الباحثين الأجانب والمسلمين . ويصفها المرحوم عباس محمود العقاد قائلا : (ولا يعرف أن أحدا سبق الأدريسى الى بيان الحقيقة عن منابع النيل العليا ، كما حفظت فى الخرائط التى بقيت فى بعض المتاحف الأوربية ، ومنها خريطة محفوظة بمتحف سان مرتين الفرنسى ترسم النيـــل آتيا من بحيرات الى جنوب خط الاستواء ، بعد أن تخبط الجغرافيون فى وصف منابعه ، وتعليل فيضانه منذ أيام هيرودوت الملقب بأبى التاريخ) (١) .

(١) أثر العرب فى الحضارة الاوربية لعباس محمود العقاد : ص ٤٦ .

ويخطو الاستاذ عباس محمود العقاد فى تقدير الخرائط الجغرافية العربية وخرائط الادريسى خطوة أخرى أبعد من هذا فيقرر انه من هذه الخرائط المرسومة والآراء النظرية تلقى كريستوف كولمبس صورته عن الكرة الأرضية ، وتخيل أن الأرض كثمرة الكمثرى المستطيلة ، ترتفع قمتها فى الهند ، وترتفع لها قمة أخرى مقابلة لها فى مكان آخر يشبه اقليم الهند بمناخه وثمراته ومحصول أرضه ومائه .. وهو فضل يحسب للعرب فى كشف العالم (١) الجديد ..

ولا يفوتنا هنا أن نختم هذا الفصل باتجاه همم العرب اليوم الى احياء خريطة الأدريسى وردها الى أصلها العربى الصحيح . وكان للمجمع العلمى العراقى ببغداد فضل المبادرة فى هذا الميدان، فقام بعض أعضائه ، وهما الأستاذ محمد بهجت الأثرى ، والدكتور جواد على بعبء هذا العمل المجيد ، بعد الرجوع فى التحقيق والتصحيح الى خمس نسخ مصورة من كتاب « نزهة المشتاق »، وطائفة من كتب الجغرافية العربية القديمة . وكانت استدراكات المحققين على « ميلر » وبيان اختلاف النسخ أهم ما فى هذا الأنجاز الجديد من آثار . وتبلغ مساحة هذه الخريطة فى ثوبها الجديد مترين مربعين بطول مترين فى عرض متر واحد . وكان

(٣) المصدر نفسه ص ٤٧ .

صدور هذه الخريطة المحققة للشريف الادريسى عن المجمع العلمى العراقى فى سنة ١٩٥١ .

وليت الاهتمام بخريطة الأدريسى يؤجج الاهتمـــام بكتاب « نزهة المشتاق » ، فيخرج على الوجه الذى نود أن يخرج عليه بعد أن يئسنا من الحصول على نسخة واحدة محققة منه ، يطمئن اليها الباحث ، ويفيد منها الدارس .

كرة أرضية من الفضة

لقد تحدث الشريف الأدريسى نفسه فى مقدمة كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » عن الكرة الأرضية من الفضة التى أمر الملك روجر الثانى بصنعها ، والتى أشرف الأدريسى نفسه على عملها بوساطة الفعلة الماهرين . وندع الادريسى نفسه يتحدث عن هذه الكرة الأرضية بقوله : (فأمر عند ذلك أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ، ضخمة الجسم فى وزن أربعمائة رطل بالرومى ، فى كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهما . فلما كملت أمر الفعلة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها ، وسيفها وريفها ، وخلجانها وبحارها ، ومجارى مياهها ، ومواقع أنهارها ، وعامرها وغامرها ، وما بين كل بلد منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة ، والأميال المحدودة ، والمسافات المشهورة ، والمراسى المعروفة ، على نص

ما يخرج اليهم ممثلا فى لوح الترسيم ، ولا يغادروا منه شيئا ، ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم فيه) .

وكانت هذه الكرة الأرضية ولا تزال موضوع الحديث عند الباحثين الذين يتحدثون عن الأدريسى فى معارض مختلفة . وتناولها الكتاب والمؤرخون من زوايا مختلفة من وجهات نظرهم، ثم زاد بعضهم فأضفى عليها من الزيادة والخيال ما يسمح به المجال . ولعل جرجى زيدان هو أول من لفت الأنظار من الباحثين العرب المحدثين الى هذه الكرة الفضية ، فنقل بعض أوصافها السابقة عن كتاب « نزهة المشتاق » للشريف الأدريسى . ولم يفت المرحوم أحمد زكى باشا أن يشير الى هذه الكرة فى بحثه الذى نشره بالمقتطف سنة ١٩١٢ عن جغرافية الشريف الادريسى. ويصادفنا فى كتاب « معجم المطبوعات العربية والمعربة » ليوسف أليان سركيس وصف وجيز لهذه الكرة نقله عن كتاب « تاريخ سورية » للمطران يوسف الدبس . ولما أصدر الأمير شكيب أرسلان كتابه « الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية » ونقل فيه وصف الأدريسى لبلاد الأندلسى ، لم يفته أن يشير فى ايجاز الى الكرة الأرضية من الفضة التى صنعها الأدريسى للملك روجر الثانى الصقلى (١) . وحين ترجم المرحوم محمد كرد على للصلاح الصفدى فى كتابه « كنوز الأجداد » لم يفته أن ينقل

(١) الحلل السندسية جـ ١ ص ١١٩ .

النص الذى كتبه الصفدى عن الملك روجار الثانى حين استقدم الأدريسى من عدوة المغرب (ليصنع له شيئا فى شكل صـورة العالم ، فلما وصل اليه أكرم نزله ،وبالغ فى تعظيمه . فطلب منه شيئا من المعادن ليصنع منه ما يريد ، فحمل اليه من الفضة الحجر وزن أربعمـائة ألف درهم ، فصنع منهـا دوائر كهيئة الأفلاك ، وركب بعضا على بعض ، ثم شكلها له على الوضع المخصوص ، فأعجب بها رجار ، ودخل فى ذلك ثلث الفضة وأرجح بقليـل ، وفضل له ما يقارب الثلثين ، فتركه له اجازة) .

ويشير المرحوم الدكتور زكى محمدحسن الى هذه الكرة (١) قائلا : (ووقع اختياره ـــ يعنى روجر الثانى ـــ على الشريف الأدريسى ليصنف له كتابا فى وصف الكرة الأرضية الفضية التى صنعت له ، مرسوما عليها جميع الأقاليم المعروفة حينئذ) . وحين تحدث الأستاذ فؤاد صروف فى كتابه « الرواد » عن الأدريسى أشار الى هذه الكرة قائلا : (وعمل له ـــ يعنى لروجر الثانى ـــ ذات حلق وكرة مسطحة من الفضة ، زنتها ثمانى مائة مارك رسم عليها جميع أقاليم وأقطار المعمورة المعروفة فى عهـده (٢) . أما المرحوم عباس محمود العقاد فلم يفته أن يتحدث عن هذه الكرة

---

(١) الرحالة المسلمون فى العصور الوسـطى : للدكتور زكى محمد حسن ص ٦٤ .

(٢) الرواد فؤاد صروف ص ٤٦ . طبعة ثانية .

الفضية قائلا :) وصنع له الملك كرة فضية تمثل كرة الأرض زنتها أربعمائة رطل رومى ليتخذها مثالا لما يثبته من معالم الكرة الأرضية (١) وكذلك فعل المرحوم قدرى حافظ طوقان فى الفصل الذى عقده عن الجغرافيا عند العرب فى كتابه «العلوم عند العرب» فقد أشار الى هذا الانجاز قائلا : وعمل لروجر خارطة على كرة مسطحة من الفضة ورسم عليها الاقاليم والاقطار التى كانت معروفة فى زمانه (٢)) وظهر كتاب حديث للأستاذ المغربى عبدالله ابن العباس الجرارى عنوانه «تقدم العرب فى العلوم والصناعات وأستاذيتهم لأوربا » أشار فى خاتمته الى الادريسى قائلا عنه انه صنع للملك روجر الثانى (كرة من الفضة رسم عليها أنحاء الأرض المعروفة لعهده) (٣) .

أما المؤرخ العربى اللبنانى الدكتور فيليب حتى ، فقد أوجز الاشارة الى هذه الكرة الفضية فى كتابه المشهور « تاريخ العرب » قائلا : (وعلاوة على هذا الكتاب ــ يعنى نزهة المشتاق ــ فأن الأدريسى صنع لولى نعمته النورمندي كرة سماوية وخريطة للعالم فى شكل قرص ، وكلاهما من الفضة) (٤) .

---

(١) أثر العرب فى الحضارة الاوربية ، لعباس محمود العقاد ص ٤٦ .

(٢) صفحة ٦٨

(٣) صفحة ٢٤٤ من كتاب « تقدم العرب » .

(٤) تاريخ العرب ، لحتى ص ٧٢٢ .

ويظهر أن نشوة المبالغة لم تفت بعض باحثينا الناشئين ، ففى كتاب «مآثر العرب على الحضارة الأوربية» لم يكتف المؤلف بأن يجعـل كرة الأدريسي من الفضـة كما أجمع المؤرخون القدامى والمحدثون ، فجعلها كرة جغرافية من ذهب (١) ، وكأنه استرخص الفضة على قدر الملك روجر الثانى ، وعلى قدر الشريف الأدريسى نفسه ، فحولها الى كرة من الذهب . وفى القسم الموسوعى من معجم « المنجد » ان الادريسى رسم للملك روجر الثانى ما عاينه من البلدان على كرة من فضة ..

ونلاحظ من عرض هـذه الأقوال فى صفة الكرة من الفضة التى أنجزها الأدريسى للملك روجر الثانى أن هناك بعض الأسئلة التى يمكن اثارتها حول هذه القضية . فالنص الذى كتبه الادريسى نفسه فى مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » لا يحدد لنا على سـبيل اليقين من الذى صنع هذه الكرة من الفضة . ويؤخذ منه أن الفعلة هم الذين نقشوا عليها صـور الأقاليم . وليس الفعلة هنا مجرد صناع عاديين ممن صبوا جسم الكرة من الفضة ، ولكنهم على ما يبدو متخصصون فى رسم الخرائط والمصورات . وبالطبع كانوا يعملون تحت توجيه الادريسى واشرافه ومعرفتـه بالجغرافية . ويبدو أن الشريف الادريسى أراد أن ينـكر ذاته فى مقـدمته لنزهة المشتاق ، حتى ينسب الفضل كله للملك روجر الثانى كما

(١) مآثر العرب على الحضارة الاوربية ، للاديب جلال مظهر ص ١٥٨

يبدو فى استهلال المقدمة . ولعل النص الذى كتبه المؤرخ الدقيق صلاح الدين الصفدى ونقله الأستاذ محمد كرد على هو أصرح فى الدلالة على أن الادريسى نفسه هو الذى شكل هذه الكرة على الوضع المخصص .

ويبدو من كلام الدكتور زكى محمد حسن أن الكرة الفضية صنعت للشريف الأدريسى مرسوما عليها الأقاليم المعروفة فى عهده، وأن دور الأدريسى لم يكن الا تأليف الكتاب الذى يصف هذه الكرة . وكأنه — رحمه الله — نفى أى مشاركة أو توجيه من الأدريسى فى عمل هذه الكرة . ويستدل من كلام فؤاد صروف محرر المقتطف القديم أن « هذه الكرة من الفضة مسطحة » ، ولن تكون كرة مسطحة الا اذا كانت على شكل قرص أو رحى ، وهذا المفهوم لمعنى التسطيح فى الكرة هو الذى جعل الدكتور « فيليب حتى » يجعل الكرة السماوية وخريطة العالم على شكل قرص .

وبمناسبة الكرة السماوية نلاحظ أن الدكتور «فيليب حتى» يكاد يكون الوحيد الذى أشار الى كرة سماوية لا أرضية فهل صنع الأدريسى كرة للسماء غير الكرة التى صنعها للأرض ووصفها فى مقدمة كتابه ؟ وهل جاء هذا الوهم من وصف صلاح الدين الصفدى فى كتابه « الوافى بالوفيات » لهذه الكرة بأن الأدريسى (صنع منها دوائر كهيئة الأفلاك) ؟ والا لماذا انفرد

الدكتور « حتى » من بين الباحثين والمؤرخين جميعا بأن هناك كرة سماوية بجانب خريطة للعالم على شكل قرص ؟

ولا أكاد أذكر أنني وقعت على باحث غير عربى جعل كرة الأدريسى سماوية ، الا ما ذكره المستشرق الكبير كراتشكوفسكى من (أن العمل فى كتاب الادريسى قد مر بثلاثة أطوار ، وخلف وراءه ثلاثة آثار : أحدها أنموذج فريد فى نوعه للكرة السماوية، وهو عبارة عن قرص من الفضة مرسوم عليه صورة العالم (١) .

وقد سكت المستشرق الروسى « بارتولد » سكوتا تاما عن وصف كرة الأدريسى الأرضية أو السماوية ، فجعلها (كرة كبيرة مجسمة من فضة) (٢) ولا ندرى الحكمة فى هذا السكوت ، أهو مقصود للتخلص ، أم هو اكتفاء بشيء مفهوم ؟ وقد تحولت الكرة من الفضة عند المستشرق الايطالى « الدومييلى » الى (رسم لسطح الأرض كان منقوشا فى لوح من الفضة) (٣) . ولعل هذا اللوح الفضى عند مييلى هو القرص من الفضة عند الدكتور حتى ، وهو الكرة المسطحة من الفضة عند الأستاذ فؤاد صروف .

---

(١) تاريخ الادب الجغرافى العربى ـ تأليف كراتشكوفسكى ص ٢٨٣ .

(٢) تاريخ الحضارة الاسلامية لبارتولد ص ٥٧ .

(٣) العلم عند العرب : تأليف الدو ميبلى ص ٣٨٧ .

ومهما كان من أمر فأن الكرة الفضية التى عملها الأدريسى — أو عملت تحت اشرافه وتخطيطه وتوجيهه — لم تستطع أن تقاوم الزمان ، فقد ذكر كراتشكوفسكى نقلا عن « ميلر » أن الثوار حطموها ونهبوا أجزاءها عند اقتحامهم لقصر روجر الثانى فى عهد خلفه سنة ١١٦٠ م .

ولو ان هذه الكرة الثمينة بقيت وسلمت من الحدثان لوفرت علينا عناء الاختلاف فى وصفها ، ولأراحتنا من الاضطراب فى صفتها على نحو ما ذكرناه .

ولا مجال هنا أكثر ملاءمة من الأشارة الى أن المؤرخ الحضارى جون درابر قد أشار فى كتابه « تطور أوربا الفكرى » الى أن عرب أسبانيا كانوا يعلمون مادة الجغرافية فى مدارسهم العامة على كرات أرضية جغرافية . ولعل كرة الأدريسى كانت وحى هذه الطريقة فى مدارس الأندلس . ومنذ ذلك الحين أخذت الكرات الأرضية والسماوية تنتشر ويعم تداولها فى أقطار الأرض العربية ، وصار الناس يتهادونها كما تتهادى الكتب والألطاف .

ولم يسكت الشعر عن تسجيل هذه الظاهرة ، وفى الشعر سجل لأحوال وعادات اجتماعية كثيرة قد نخطئها فى غيره ، فقد

أهدى شاعر الى الشاعر المصرى جمال الدين بن مطروح المتوفى سنة ٦٤٦ هـ كرة أرضية واسطرلابا لمحيط السماء ، وكتب اليه :

كرة الأرض مع محيط السـماء
لـك أهديت ياكريم الاخـاء
واذا ما قبلتهـا فلك المنـة
عنـدى يا أكرم الكـرماء !

بين الأصالة والنقل

حينما كتب المستشرق الروسى مينورسكى (١) مادة «الروس» فى دائرة المعارف الاسلامية لم يفته فى خلال ذلك الفصل أن يشير الى الأدريسى اشارة طيبة ، فقد عده (الكاتب الوحيد الذى يمدنا بمعلومات أصيلة عن الروس بعد القرن العاشر ، فهو يتناولهم فى كلامه عن الأقليم السادس القسم الخامس « نهر الروس ، والمدن التى على نهر الدنيبر » وعن الأقليم السابع القسم الرابع والقسم الخامس « منابع الدنيستر ، الروسيا ، وقومانيا أى أرض القومان) . ووصف معلومات الادريسى هنا بأنها « أصيلة » يحمل شهادة جيدة ممن يملكون الشهادة من أهل الروس . وبالطبع كانت المعلومات التى دونها الادريسى فى كتابه « نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق » هى تلك المواد العلمية التى جمعها

(١) هو العالم المحقق لتاريخ فارس : Minorsky المتوفى سنة ١٨٧٧ وقد خلفه آدبرى فى الاستاذية بجامعة لندن .

له بالمشاهدة والمعاينة أولئك الرسل الذين أوفدهم الملك روجر الثانى الى أصقاع مختلفة من الأرض لجمع معلومات ومشاهدات وملاحظات يدونها الجغرافى العربى فى كتابه .

ولا شك أن الرواد والرسل الذين بعثهم روجر الثانى الى الأقاليم المختلفة وخاصة فى أوربة . وأقصى أطرافها مثل اسكندناوة ـــ كانوا يجمعون البيانات وأوصاف البلاد وتحقيق معالمها بعد أن تغربل معلوماتهم ويقابل بعضها ببعض . وكانت عملية الغربلة هذه يقوم بها الأدريسى نفسه كآخر خطوة للجمع . وبهذا امتاز الادريسى على من سبقه من الرحالة والجغرافيين المسلمين بأنه أضاف الى المعارف المعروفة فى وقته معارف جديدة لم يأت بها سابقوه من الجغرافيين . ولاشك أن الدقة والأصالة التى تمتاز بها معلومات الأدريسى عن بعض بلاد أوربا ومظاهرها الطبيعية ترجع الى معاينة الرواد المبعوثين من ناحية ، والى بصره هو بعملية النخل والغربلة من ناحية أخرى .

ولقد أفادت معارف الأدريسى الجغرافية عن أوربا وأطرافها أكثر العلماء العرب الذين جاءوا بعده ، فقد أخذوا منها ونقلوا عنها . وبهذا عد هو رائدهم فى الميدان .

وما كتبه الادريسى عن سواحل لشبونة وفرنسا وانجلترة يجعل بعض مترجمى سيرته يميلون الى الاعتقاد بأنه رحل الى تلك الأماكن ، وان كان ذلك على غير سبيل القطع واليقين .

ولقد نتج عن اجتماع المعلومات القديمة والمعلومات الحديثة المنقولة على ألسن الرسـل الموفدين نوع من اختلاط المادة عند الادريسى ، مما جعل المستشرق مينورسكى يقرر فى موطن آخر ان الادريسى يخلط المعلومات المأثورة عن السلف ، بالمعلومات التى كانت متداولة فى عصره ، بوضع بعضه االى جانب بعض ، فهو يذكر « كويابه » مثلا ، مع كاو « كييف » .

ومسألة النقل عند الادريسى لا تقدح مطلقا فى مكانته ، فان العلم ميراث يسلمه السابقون الى الآتين بعدهم . ولا يعاب باحث أو عالم بأنه نقل مادام هو نفسه يصرح بنقله ، ولكن العيب أن ينقل الرجل عن غيره ويخفى نقوله . وقد كان الأدريسى واضحا وصادقا فى نقله . فأنه فى مقدمة كتابه « نزهة المشـتاق » ذكر المصـادر التى نقل عنها ما بين عرب وغـير عرب . وهى كتاب « العجائب » للمسعودى (١) ، وكتاب أبى نصر سعيد الجيهانى. وكتاب ابن خرداذبة ، وكتاب أحمد بن عمر العذرى ، وكتـاب أبى القاسم محمد بن حوقل من علماء الجغرافية فى القرن الرابع الهجرى ، وكتاب جاناخ بن خاقان ، وكتـاب موسى بن قاسم ، وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبى ، وكتـاب اسـحاق ابن الحسن المنجم ، وكتاب قدامة البصرى ، وكتاب بطليموس

(١) هكذا ذكر الادريسى كتاب العجائب على أنه للمسعودى ، ولا يعلم أين هذا الكتاب الآن ، ولم يذكره المسعودى نفسه فى ثبت مؤلفاته .

الأقلودى، وكتاب أرسيوس الانطاكى. وهذه المصادر الاثنا عشر هى المراجع التى ذكرها الأدريسى على سبيل المثال لا الحصر فى مقدمة كتابه . ومن هنا لا محل للومه بأنه أغفل ذكر بعض المصادر التى رجع اليها واعتمد عليها . على أن المصادر التى ألفت قبله غير قليلة العدد ، ولاشك أنه استعان بهـا ، ولكنه ذكر ماذكره منها على سبيل المثال فقط ، ويؤكد هذا قوله فى المقدمة أنه يمثل ببعض مصادره ولا يحصرها كلها . ومن المصادر التى أفاد منها الادريسى ولم يذكرها : كتاب «البلدان» لابن الفقيه ، «ورحلة سليمان التاجر » التى نقلها وعلق عليها أبو زيد السيرافى ، وكتاب « رسم الربع المعمور » المعروف بصورة الأرض لمحمد بن موسى الخوارزمى ، وكتاب « الأعلاق النفيسة » لابن رستة الذى كتبه سنة ٢٩٠ هـ وهو فى اصبهان .

أما سليمان التاجر الذى نستنتج أن الادريسى أخذ عنه، فهو تاجر من أهل سـيراف على الخليج الفارسى ، وترجع حكاياته ورحلاته البحرية الى سنة ٢٣٧ هـ ، وقد أضاف اليها رحالة عربى آخر هو « ابن وهب » بعض المشـاهد ، ثم دون الرحلتين بعد ذلك فى بداية القرن العاشر الميلادى أبو زيد السيرافى من أهل البصرة ، وأعطاهما شكلهما المعروف عندنا الآن ، مع أنه لم يكن رحالة ، ولكنه كان مغرما بحكايات الأسفار وغرائب الرحلات .

وحكاية نقل الأدريسى عن مؤلفين قبله كانت ولا تزال، معلومة عند المؤرخين القدامى والمحدثين ، لأن الرجل نفسه لم يخفها . وقد أشار مؤرخنا ابن خلدون ، فى الفصل الذى عقده فى المقدمة على الكلام على الجغرافيا ، الى بعض المصادر التى جمع منها الادريسى معارفه الجغرافية ، وذكر منها ستة لا غير بدلا من الاثنى عشر مصدرا . والستة المصادر التى ذكرها ابن خلدون هى : كتاب المسعودى ، وابن خراداذبة ، والحوقلى — يعنى ابن حوقل — والعذرى ، وابن اسحاق المنجم ، وبطليموس .

ومن طرائف التصحيف فى هذه المناسبة أن الأستاذ الدكتور «على عبدالواحد وافى» ذكر فى طبعته المحققة لمقدمة ابن خلدون اسم العذرى على أنه « القدرى » بالقاف والدال المهملة غير المنقوطة . وهو من التصحيفات التى لم نجد بدا من الأشارة اليها هنا ، ونحن فى معرض التحقيق لمصادر الأدريسى الجغرافية .

وقد أشار المستشرق الاسبانى فى القرن التاسع عشر «بونس بويج » ، بصفة خاصة الى « العذرى » وكتابه الذى أفاد منه الادريسى ، ولا ندرى السر فى افراد العذرى بهذا ، فان الادريسى ذكره فيمن ذكره من مصادره . وعلى كل فالعذرى هذا هو أحمد ابن عمر المتوفى سنة ٤٧٨ هـ . وهو تلميذ لابن حزم الاندلسى ، وأستاذ — فى الوقت نفسه — لابن عبد البر القرطبى . وكتابه فى الجغرافية عنوانه « نظام المرجان فى المسالك والممالك » ، وهو

مفقود اليوم ، ولكن الأدريسى اطلع عليه فى وقته وجعله من مصادره . ويجب أن لايضللنا النسب فى اسم العذرى فيوقعنا فى لبس مع نسبة أخرى هى « الدلائى » . والواقع أن العذرى والدلائى هما نسبتان لرجل واحد هو أحمد بن عمر العذرى هذا . وقد أفرده المستشرق الاسبانى بالنثيا باسم « الدلائى » ، مما يوهم أنه غير العذرى ، والحق أنه هو . ومن عجائب الوهم الذى يجوز على العلماء الباحثين أن صديقنا القديم الدكتور حسين مؤنس قد جعل نسبته هكذا : (الدلالى) ، وهو خطأ صوابه : (الدلائى) بالهمزة فالياء ، نسبة الى قرية دلاية من أعمال الأندلس .

ومن الباحثين الذين أشاروا الى نقل الأدريسى عن غيره المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى كتابه « المجددون فى الاسلام» ، والأستاذ فؤاد صروف فى كتابه «الرواد»، والدكتور نقولا زيادة فى كتابه «رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى»، والدكتور زكى محمد حسن فى كتابه « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » ، والدكتور شوقى ضيف فى كتابه «الرحلات» ، والدكتور حسين فوزى فى كتابه « حديث السندباد القديم » .

وحين يروى الأدريسى عن أفواه الرواة وأصحاب الحكايات ورجال الرحلات فأنه يذكر ذلك ، كما نجده فى القسم الخاص

بالهند من كتابه ، فأنه يقول : (ومما يحكى التجار المسافرون الى الهند عن ولادة الفيلة أن الأناث منها تلد أولادها فى المياه الراكدة) (١) ، أو يقول فى موطن آخر : (ومما يحكى فى الكتب الصحيحة الأخبار ..) (٢) ووصف الكتب هنا بصحة الأخبار هو توطئة لطمأنينة القارىء على أن الخبر الذى يرويه الأدريسى صحيح فى تقديره ..

ومما نقله الأدريسى عن سليمان التاجر ورحلته وصف النافورة البحرية الخطيرة التى تكون مصحوبة غالبا بظواهر اعصارية كالرعد والبرق والبرد . وبالطبع لم يقدر للأدريسى أن يركب المحيط الهندى ليرى تلك الظاهرة البحرية فيه ، ولكن سليمان التاجر ركبه من قبل ووصفها وصفا دقيقا نلحظه فى عبارات الأدريسى التى أخذها منه . كما نقل عن رحلة سليمان التاجر حكاية احراق الهنود جثث موتاهم حيث قال : (واذا مات الملك صنعت له عجلة على قدر عريضة ، ارتفاعها عن الأرض مقدار شبرين أو نحوها . وتوضع على العجلة قبة مكللة ، ويوضع الملك بحلية كفنه على تلك العجلة ، ويطاف به على المدينة كلها ، يجره عبيده ، ورأسه مكشوف لمن يراه ، وشعره ينجر على تراب الأرض ، وينادى عليه مناد بلسان الهندية بكلام تفسيره بالعربية :

---

(١) وصف الهند : طبعة الهند ص ٧٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٤ .

« أيها الناس ! هذا ملككم فلان بن فلان ، عاش فى ملكه فارحا قادرا كذا كذاسنة . وها هو قد مات ، وفتح يده بما معه ، لا يملك من ملكه شيئا ، ولا يدفع عن جسمه أذى . ففكروا فيما أنتم اليه صائرون ، واليه راجعون » . كل هذا باللغة الهندية . فاذا فرغ من الطواف به ، خرج الى مكان النار التىمن عادتهم أن يحرقوا بها موتى ملوكهم ، فيلقونه فى النار حتى يحترق ..) (١) . ومما نقله الأدريسى عن المسعودى المؤرخ حكاية شجرة الوقواق ولكنه رفض تصديقها لعدم مطابقتها للعقل .

بقى أن نتناول فى ختام هذا الفصل أصحاب المصادر الذين نقل عنهم الأدريسى وذكر أسماءهم فى مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » . وأولهم المسعودى المؤرخ والجغرافى صاحب كتاب « مروج الذهب » فى التاريخ ، وهو يعد من المؤرخين العرب أكثر مما يعد من الجغرافيين ، وان كانت رحلاته الدقيقة ذات قيمة كبيرة من الناحية الجغرافية ، وهو من ذرية الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود ، ومن هنا جاءته نسبة المسعودى . وقد توفى سنة ٣٤٦ هـ . ويشير الأدريسى الى أنه صاحب كتاب «العجائب» ولا نعرف له كتابا بهذا الاسم ، ولعله ضاع فيما ضاع من كتبه النفيسة . ويظهر أن الأدريسى اطلع فى عصره على نسخة من هذا الكتاب فأفاد منه ونقل عنه .

---

(١) المصدر السابق ص ٦٢ .

أما أبو نصر سعيد الجيهانى ، فاسمه أبو عبد الله محمد ابن نصر الجيهانى وكان وزيرا لأمير من أمراء السامانيين هو الأمير نصر الثانى . ويذكر بعض المؤرخين السابقين أن الجيهانى (ألف كتابا فى صفة العالم وأخباره وما فيه من العجائب والمدن والأمصار والبحار والأنهار والأمم ومساكنهم ، وغير ذلك من الأخبار العجيبة والقصص الطريفة) • وكتاب الجيهانى مفقود الى اليوم وان كان موجودا فى عصر الأدريسى . ويرجح بعض الباحثين المعاصرين أن كتاب الجيهانى تم تأليفه قبل سنة ٣٠١ هـ ولكنها استنتاجات يعوزها الدليل الملموس • ولا يعلم بالضبط تاريخ وفاة الجيهانى وان كان جرجاس يزعم أنه توفى سنة ٩٥٦ م .

أما ابن خرداذبة ، فهو عبيد الله بن عبد الله، وهو من أصل فارسى ، وقد تلقى كثيرا من العلوم والفنون ، حتى لقد أرسله والده الى اسحاق الموصلى ليأخذ عليه الغناء والموسيقى . ومؤلفاته مفقودة حتى الكتاب الذى ذكره الأدريسى من مصادره ولعله كتاب « المسالك والممالك » الذى طبع ما عثر عليه منه فى ليدن بعناية واشراف المستشرق دى جويه . وليست وفاة ابن خرداذبة معلومة على سبيل اليقين والتحديد ، وان كان صاحب « كشف الظنون » يذكر أنها كانت حوالى سنة ٣٠٠ هـ ، ولكن جرجى زيدان يذكر أنه توفى فى أواسط القرن الثالث للهجرة .

والعذرى الذى ذكره الأدريسى على أنه من مصادره هو أحمد ابن عمر العذرى الذى كان تلميذا لابن عبد البر القرطبى. وكتابه « نظام المرجان فى المسالك والممالك » مفقود اليوم وان كان رجع اليه المؤرخون والجغرافيون القدامى التالون له من أمثال القزوينى والأدريسى وياقوت الحموى . والعذرى هو من أهل الأندلس الذين رحلوا الى الشرق وجابوا كثيرا من الأقطار، ومن هنا تمتاز معارفه الجغرافية بالدقة والمعاينة ، وتوفى العذرى سنة ٤٧٨ هـ وقد سبق القول أن له نسبة أخرى هى الدلائى ، فلا محل لجعل الدلائى شخصا آخر غير العذرى .

أما ابن حوقل فهو أبو القاسم محمد بن حوقل — وأحيانا يقال له الحوقلى — وكان معاصرا للأصطخرى وأصغر منه سنا . وقد بدأ رحلاته الى العالم المعروف فى وقته بالتجارة ، ولكن يقال انها كانت لأغراض سياسية . وهو من أهل المشرق الوافدين الى شمالى أفريقية والأندلس . ومن هنا كانت أوصافه لنابلى وصقلية. ويحمل كتابه اسم « المسالك والممالك » ، أو كتاب صورة الأرض . وكتابه حافل بمعلومات غزيرة طريفة عن الحياة الاجتماعية فى الأندلس فى عصره . ومن هنا اشتهر كتابه عند المغاربة والأندلسيين أكثر مما اشتهر عند المشارقة . وقد طبع هذا الكتاب فى لندن سنة ١٨٠٠ م مع ترجمته الى الانجليزية ، كما اهتم المستشرقون بنشر وترجمة القسم الخاص من كتابه

بأفريقية وبالرم فى جزيرة صقلية . وتوفى ابن حوقل فى القرن الرابع وفى تاريخ غير معلوم .

ولعل اسم جاناخ — أو جناخ — بن خاقان الكيماكى من الأسماء الغريبة المجهولة عند الباحثين ، على الرغم من رجوع الأدريسى وغيره اليه . ومعلوماتنا عنه لاتكاد تذكر ، حتى عند الباحثين الأجانب المشهورين بالبحث والتنقيب . ويحمل اسمه معنى النسبة الى قبيلة « كيماك » التركية بآسيا الوسطى . ولا ندرى اسم كتابه الذى أشار اليه الأدريسى على أنه من مصادره .

ويظهر أن حظ موسى بن قاسم القردى — وهو أحد مصادر الأدريسى — لا يزيد على حظ جاناخ من المعرفة به . وليت الأدريسى قد هدانا الى أسماء تلك المصنفات مقرونة بأسماء أصحابها ..

أما اليعقوبى الذى ذكره الأدريسى من مصادر نقله ، فهو أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن واضح . وهو معروف لدينا بكتابه المشهور فى التاريخ ، كما أن كتابه فى الجغرافية الذى نقل عنه الأدريسى والذى عنوانه (كتاب البلدان) معروف كذلك عن مخطوطته الوحيدة بميونخ ، وعن مخطوطة أخرى كشفت من عهد غير بعيد . ويبدو أن كتابه قد انتهى من تأليفه سنة ٢٧٨ هـ

أى قبل وفاته سنة ٢٨٤ هـ بستة أعوام ، اذا أغفلنا القول القائل بأنه توفى سنة ٢٩٢ هـ .

ولا يقل اسحاق بن المنجم ، جهلا به وعدم معرفة له ، عن جاناخ الكيماكى ، وموسى بن قاسم القردى ، ولا نعلم من أين جاءته هذه النسبة الغريبة ، كما لا نعلم عنه شيئا الا ما ذكره الأدريسى من أن له كتابا فى الجغرافية رجع اليه وأخذ منه .

ونختم بقدامة البصرى كما ذكره الادريسى ، وهو قدامة ابن جعفر ، صاحب كتاب « الخراج » المشهور ، ولم يكن قدامة جغرافيا حتى يفيد منه الشريف الأدريسى ، ولكن كتابه فى الخراج يفيد فى معرفة البريد والسكك والطرق الى نواحى المشرق والمغرب ، والمسافات بين البلاد . ويعتبره بعض الباحثين الأجانب تتمة هامة لكتاب ابن خرداذبة ، اذ كثيرا ما يساعد فى تحقيق نقاط عديدة فيه ، لأنه يعتمد فى أغلب الأحوال على الوثائق الرسمية . وتوفى قدامة سنة ٣١٠ هـ .

المعاينة والمشاهدة

اذا كان الشريف الأدريسى قد لجأ الى النقل فيما لم تصل اليه استطاعته وخبرته ، فانه قد آثر التجربة والخبرة الشخصية ، واعتمد على المعاينة فيما هو قريب من متناوله . ولو أن الأدريسى أتيح له مثلا أن يجوب فى الهند والصين وشرقى أفريقية ، وأن يجتاز تلك البحار البعيدة الممتدة الى هناك ، لما أحجم عن وصفها وصف الخبير المعاين ، ولما احتاج الى أن ينقل فى «نزهة المشتاق» بعض أوصاف غيره ممن سبقوه الى تلك البقاع والأصقاع .

وحين نصب الأدريسى نفسه فى صقلية للقيام بالعمل الذى كلفه اياه الملك روجر الثانى من كتابة « نزهة المشتاق » ، وعمل الخريطة والكرة المشهورة ، فانه لم يحجم لحظة عن الاستفهام والسؤال من أهل المعاينة والخبرة والمشاهدين الذين أتيح لهم من الرحلة مالم يتح له . فقد كان الرجل كثير التسآل والاستخبار من الرحالة والحجاج ، وكان لا يتوانى عن السؤال العلمى متى

ماوجد في ذلك خدمة للمعرفة التي كان يبحث عنها ، والحقيقة التي ينشدها .

وقد لاحظنا فى معرض وصفه للأندلس والمغرب وصقلية أنه يذكر عبارة تدل على معاينته لما رآه ووقعت عليه عينه ، فيقول مثلا : « وقد رأيناه عيانا » ، أو : « وقد رأيته بعينى » ، أو غير ذلك من العبارات التي تدل على المعاينة لا على السماع أو النقل. وقد يجزىء مثال واحد ، أو نموذج واحد من ذلك عن بضعة نماذج لحظناها فى خلال قراءاتنا له . ففى وصفه لحصن المعدن قرب مدينة لشبونة يقول : (وعلى ضفة النهر من جنوبه ، قبالة مدينة لشبونة ، حصن المعدن . وسمى بذلك لأنه عند هيجان البحر يقذف هناك بالذهب والتبر ، فاذا كان زمن الشتاء قصد الى هذا الحصن أهل تلك البلاد ، فيخدمون المعدن الذى به الى انقضاء الشتاء . وهو من عجائب الأرض ، وقد رأيناه عيانا) (١).

ولم يغب عن بال بعض الذين ترجموا للشريف الأدريسى أو تحدثوا عنه فى معارض الأيجاز أن يشيروا الى ناحية المعاينة والمشاهدة عند الرجل . وقد يكون الأدريسى فى ذاته ممن يحبون التجربة والعيان ويؤثرونهما على ما عداهما من وسائل ايصال المعرفة ، ولكن الموقف الذى وقفه منه الملك روجر الثانى قد

(١) وفى وصف الادريسى للرصيف الذى يلى بلاد الاندلس ويظهر فى أوقات صفاء البحر يقول : (وقد رأيناه عيانا) .

حمله على اتخاذ المعاينة طريقا الى اكتساب المعارف والمعلومات ، فان روجر نفسه كان حريصا على كسب المعرفة بالتجارب ، ويظهر انه أوصى الادريسى بهذا ، فان مقدمته لكتاب « نزهة المشتاق » قد تحمل ملامح من هذا الاهتمام . على أن سلوك روجر الثاني نفســـه مع العارفين بالمعارف الجغرافية قد حملهم على أن يلجأوا الى الخبرة والتجربة والمعاينة بأنفسهم . فانه ـــ على ما يرويه الأدريسى ـــ أحضر لديه العارفين بالبـــلاد والأقطار ، وباحثهم . فلم يجد عندهم علما أكثر مما تحويه الكتب . (فلما رآهم على مثل هذه الحال بعث الى سائر بلاده ، فأحضر العارفين بهـــا ، المتجولين فيها ، فسألهم عنها بواسطه جمعا وأفرادا ، فما اتفق فيه قولهم وصح فى جمعه نقلهم ، أثبته وأبقاه ، وما اختلفوا فيه الغاه وأزجاه ..)

ومن هنا نجد باحثا كالمرحوم عبد المتعال الصعيدى يقرر أن روجر الثانى طلب من الشريف الأدريسى (أن يحقق أخبار البلاد بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب ،فوقع الاختيار على أناس ألبـــاء فطناء أذكياء ، ساروا الى أقاليم الشرق والغرب جنوبا وشمالا ، وأخـــذوا معهم مصورين يصـــورون كل مايشـــاهدونه . وكان الأدريسى يدون كل ما يصل اليه منهم حتى تكامل له كتابه .).

على أن توصـــية روجر الثانى للأدريسى بأن يحقق أخبـــار البلاد بالمعاينة قد جاءت صراحة فى الترجمة التى كتبها المؤرخ

الأديب الصفدى لروجر الثانى فى كتابه « الوافى بالوفيات » . وندع الصفدى يقول بعبارته : (فرتب له كفاية لا تكون إلا للملوك ، وطلب اليه أن يحقق أخبار البلاد بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب ، فوقع اختيارهما على اناس الباء فطناء أذكياء ، وجهزهم روجر الى أقاليم الشرق والغرب جنوبا وشمالا ، وسفر معهم قوما مصورين ، ليصوروا ما يشاهدونه « عيانا ») .

ومن هذا النص الصريح أكد الباحثون كل ما يقال عن عنصر المعاينة والمشاهدة عند الأدريسى . وبهـذا اجتمعت لديه المعاينة من طريقين : طريق مشاهداته هو ومعايناته الشخصية كما سلف القول : وطريق الأخبار التى اجتمعت لديه من الرسل والمصورين الذين كلفهم روجر السفر والمشاهدة وجمع المادة اللازمة .

ومن هنا أيضـا نجد مؤلف كتاب « الرحلات » يقرر (أن الأدريسى يتبع الطريقة العربية ، طريقة العرض الجغرافى القائم على المشاهدة). ولكن فى هذا الكلام على ـ جملته ـ نظرا فلم تكن طريقة كثير من المؤلفين العرب قائمة على المشاهدة ، بل استسهل بعضهم النقل عن بعض ، وأصبح مانراه فى كتاب سابق مكررا بنصه وعباراته تقريبا فى مؤلفات لاحقة .

ويشير الدكتور « فيليب حتى » فى كتابه « تاريخ العرب » الى قيمة ما فى كتاب « نزهة المشـتاق فى اختراق الآفاق » من

قيمة المعلومات الحية التى جمعها الأدريسى من الرسل والمبعوثين والمصورين الذين أوفدهم الملك روجر الثانى لتجميعها . ويقرر الدكتور « حتى » أن أهمية « نزهة المشــتاق » لا تقتصر على تلخيص المواضيع الرئيسية فى الكتب السابقة بهــذا المضمار ، كمؤلفات بطليموس والمسعودى فحسب ، بل تعود أهميتها أيضا الى أنهــا مبنية فى الأســاس على تقارير مبتكرة اتصلت به عن طريق رواة كان قد أنفذهم الى بلدان متفرقة لكى يأتوه بالمعلومات. ويظهر أن أعجاب مؤرخنــا العربى الدكتور حتى بالأدريسى قد جعله يشيد به فى طريقة بحث المواد التى اتصلت به ونقدها وتحرى الحقيقة فيها ، فقد أظهر فى ذلك ـــ كما يقول الدكتور حتى ـــ رجاحة عقل ، ورحابة صدر ، وكشف عن فهم لبعض القضــايا الهامة ، كأدراكه لكروية الأرض . ولكن الدكتور حتى ـــ فى غمرة التحمس لهــذا الجغرافى العربى العظيم ـــ قد تغــاضى عن احجام الأدريسى عن نقد مصادره ومنقولاته ومناقشــتها مناقشة متحررة ، فقــد كان ينقــــل ـــ بلا تحقيق ولا تعليق ـــ بعض الخرافات الأوسع انتشارا فى عصره .

ولكن موقف الأدريسى من الخرافات السائدة حتى عصره لم يكن دائما موقف التسليم والقبول بلا مخالفة أو مناقشة . ففى بعض الأحيان يرفض صاحبنا التسليم بأمور تدخل فى نطاق غير

المعقول . ولا نزال نذكر له موقفه من « شجرة الوقواق » التى تردد بين من سبقوه أنها (شجرة ببلاد الهند تحمل ثمرة تشبه رءوس الآدميين) . فقد ذكر فى « نزهة المشتاق » أن المسعودى نسب الى شجرة بجزائر الوقواق أمورا لاتدخل فى نطاق العقل الى حد أن الأدريسى رآها غير جديرة بالذكر . وعلى حين يرفض الأدريسى قصة هذه الشجرة نرى جغرافيا أندلسيا آخر هو محمد ابن أبى بكر الزهرى الذى عاش بغرناطة حوالى سنة ٥٣٢ هـ ، والذى يدعوه بعض الباحثين « مؤلف « المرية » المجهول » يروى لنا قصة الشجرة المسحورة بجزائر واق الواق التى تثمر أشجارها كل سنة نساء بدلا من الفاكهة . والحق أن القول باعتماد الشريف الأدريسى فى تدوين المادة الجغرافية على المشاهدات الخاصة هو قول لا ينبغى أن يطلق بلا احتراس ، فأن التقارير التى جمعها الرسل المندوبون الذين أوفدهم روجر الثانى لارتياد الأقاليم ، لم تغط كل بلاد العالم المعروف فى ذلك العهد ، بل غطت الأرض المحيطة بجزيرة صقلية أو القريبة منها . أما الهند وأطراف آسيا وأفريقية مثلا فقد اعتمد فيها الأدريسى على النقل ، لأن المعاينة والمشاهدة كانت بالنسبة اليه فى ذلك الميدان أمرا بعيد الاحتمال، أو تكليفا بما لا يطاق .

على أن ذلك لا ينقص شيئا من قدر هـذا العالم الجغرافى العربى الذى بذل كل ماوسعه من الجهد ، حتى يحقق ما يصبو اليه هو والملك روجر الثانى من تطبيق مبدأ المعاينة فى ميدان الجغرافية العربية التى رفع لها شأنا أى شأن فى مجال التقدم العلمى عند العرب .

منهج الإدريسي في وصف البلاد

يمتاز وصف الأدريسي للبلاد التي زارها او المدن التى اجتازها، بطابع معين يميزه التفطن الشديد لكل ما تقع عليه العين من انسان وجماد وحيوان ونبات . فهو دائما — وخاصة حين يصف مشاهداته الخاصة — منفتح العين والذهن على كل مايراه ، ولا يكاد يغيب عنه مشهد أو موقع أو ظاهرة طبيعية أو صناعية مما يمر عليه . وتتجلى هذه المميزات فى البلاد والمدن التى رآها وجال فى أنحائها . على أنه وهو ينقل صفة البلدان التى لم يزرها فأنه يختار من المشاهد ما يكون ذا أثر وقيمة فى نفس القارىء ، أو يثير فيه نوعا معينا من الفضول والاستطلاع .

ولاشك أن الأدريسى قد زار الأندلس زيارات فاحصة دارسة ، وزار المغرب وطاف بكثير من أرجائه ، كما جال فى جزيرة صقلية التى أقام فيها زمانا . ومن هنا كانت أوصافه لهذه الأقطار تتميز بالدقة والملاحظة .

ويبدو اهتمام الأدريسى بسكان البلاد التى زارها ووصف أشكالهم وأخلاقهم وعاداتهم وطبائعهم . ففى حديثه عن مدينة البصرة المغربية فى القسم الخاص بالأندلس من كتابه « نزهة المشتاق » يتحدث عن سورها وقراها وعماراتها وغلاتها وهوائها المعتدل ، ولكنه لا يفوته أن يتحدث عن أهلها فيصفهم بأنهم (أعفاء ، ولهم جمال وحسن أدب) . وهو هنا يجمع بين محاسن الخلق ومحاسن الخلق . وفى حديثه عن مدينة « أنزلان » بالمغرب ينتهى به الحديث عن سكانها الأوائل من « غمارة » الذين (طهر الله منهم الأرض، وأفنى جمعهم، وخرب ديارهم، لكثرة ذنوبهم، وضعف اسلامهم ، وكثرة جرأتهم ، واصرارهم على الزنا المباح ، والمواربة الدائمة ، وقتل النفس التى حرم الله بغير الحق ، وذلك من جزاء الظالمين) .

وينتقل بنا الأدريسى الى مدينة شلب الأندلسية التى تبعد عن « شنت مارية » ثمانية وعشرين ميلا ، فيخص أهلها ببعض الصفات المميزة لهم ، فهم (عرب من اليمن وغيرها ، وهم يتكلمون بالكلام العربى الصريح ، ويقولون الشعر ، وهم فصحاء نبلاء ، خاصتهم وعامتهم . وأهل بوادى هذا البلد فى غاية من الكرم ، لايجاريهم فيه أحد ..) . وهكذا يبرز لنا الأدريسى فى أهل مدينة بالأندلس ناحية فصاحتهم وانطلاق ألسنتهم ، ونظمهم الشعر ، وتكلمهم باللسان العربى الصريح . وحين يحدثنا عن « رابطة

كشطالى » القريبة من قلعة شيفر يصف القوم الذين يمسكونها بأنهم قوم أخيار . وهو هنا متفطن الى مظاهر الخير والشر بين السكان . أما النظرة من الأدريسى الى النساء فلا تقل دقة عن النظرة الى الرجال ، فحين مروره على مدينة « جنجالة » الأندلسية التى تبعد عن «مرسية» خمسين ميلا يلفته جمال نسائها وحصافتهن فلا يتوانى عن تسجيل ذلك (١) .

وقد يكون لكثير من المدن التى يصفهـا الأدريسى تاريخ سياسى أو عسكرى فلا يفوت هذا الرجل أن يشير اليه فى خلال وصفه . فحين حديثه عن « المدينة الخضراء » بالأندلس سجل بعض لقطات من تاريخها السياسى ، فقال : (والجزيرة الخضراء أول مدينة افتتحت من الأندلس فى صدر الاسلام . وذلك فى سنة تسعين من الهجرة ، وافتتحها موسى بن نصير من قبل المروانيين ، ومعه طارق بن عبد الله بن ونموا الزناتى ، ومعه قبـائل البربر . فكانت هذه المدينة أول مدينة افتتحت فى ذلك الوقت) .

ولا تخطىء عين الأدريسى وصف المعالم والمشـاهد وأماكن العبادة سواء أكانت مساجد . أم كنائس . فهو يصف المسجد الجامع بقرطبة . فيطيل فيه بعض الاطالة على قدر حظه من الفخامة

---

(١) من أوصاف الادريسى الدقيقة للناس صفته لاهل قرطبة ، وقد أثنى عليهم ثناء مستطابا وذكر كثيرا من محامدهم ومناقبهم . أنظر « الحلل السندسية » .

والضخامة ويقول فيه : (وفيها المســـجد الجامع الذى ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقا ، وطولا وعرضا . وطول هذا الجامع مائة باع مرسلة ، وعرضه ثمانون باعا ، ونصفه مسقف ، ونصفه صحن للهواء ، وعدد قسى (١) مسقفه ١٩ قوسا . وفيه من السوارى ، أعنى سوارى مسقفه بين أعمدته وسوارى قبلته صغارا وكبارا ، مع سوارى القبة الكبرى وما فيها ، ألف سارية . وفيه ١١٣ ثريا للوقيد ، أكبرها واحدة منها تحمل ألف مصباح، وأقلهـــا تحمل ١٢ مصباحا .. ولهذا المسجد الجامع قبلة يعجـــز الواصفين وصفها وفيها اتقان يبهر العقول تنميقها ، وكل ذلك من الفسيفساء المذهب والملون) ويمضى الأدريسى هكذا فى وصف المحراب والمنبر والساباط وصومعة الأذان ، والمصـــحف الكبير الذى يرفعه رجلان لثقله ، وفيه أربع أوراق من مصحف عثمان ابن عفان الذى خطه بيمينه وفيه نقطة من دمه .

ولا تقل دقته وحيوية وصفه للمسجد عن دقته وحيوية وصفه « لكنيســـة الغراب » بالأندلس ، فهى من عهـــد الروم الى أيام الأدريسى لم تتغير عن حالها ، ولها أموال يتصدق بها عليها . وهى عامرة بالقسيسين والرهبان . وعلى رأسها عشرة أغربة لا يعرف

---

(١) القسى : جمع قوس ، وهو المعروف فى الابنية ، ويجمع على أقواس أيضا .

أحد فقدها وعهد زوالها . ويتحدث قسيسو الكنيسة عن هذه الأغربة بغرائب لا يكاد يصدقها العقل .

وقد وصف الأدريسى القناطر ومنها القنطرة العجيبة غربى مدينة لاردة بالأندلس ، كما وصف المرآة الغريبة التى أقامتها الملكة لاردة بنت هرسوس فى برج عال من القصر يدور على حرفه فتدور معه المرآة . كما وصف الحمامات التى كانت فى بعض المدن ، كحمامات مدينة لشبونة الحارة فى الشتاء والصيف .

وتأخذ الأسواق العامة والخاصة مكان الاهتمام عند الادريسى ، ففى حديثه عن مدينة سبتة بالمغرب يشير الى شجر المرجان فيها الذى لا يعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار ، ثم يفضى به الحديث الى سوق المرجان فيقول : (وبمدينة سبتة سوق لتفصيله وحكه ، وصنعه خرزا ، وثقبه وتنظيمه ، ومنها يتجهز به الى سائر البلاد . وأكثر ما يحمل الى غانة وجميع بلاد السودان ، لأنه فى تلك البلاد يستعمل كثيرا) . وحين يمر معرجا من طنجة الى بلدة « أزيلا » ، فأنه يتحدث عن الأسواق القريبة فى أرضها . وكذلك تلفت نظره كثرة الأسواق فى مدينة « أشبيلية » بالأندلس فيقول عنها : (ومدينة أشبيلية مدينة كبيرة عامرة ، ذات أسوار حصينة ، وأسواق

كثيرة ، وبيع وشراء) . ويخرج من مدينة أشـبيلية الى مدينة « لبلة » فيتحدث عن الأسواق والتجارة فيها .

وبمناسـبة التجارة نلاحظ اهتمـام الأدريسى فى « نزهة المشتاق » بأنواع التجارات ، والسلع والغلات التى يتجر بها فى كل بلد . ففى أشبيلية تتركز جل تجارة أهلها فى الزيت ، ويتجهز به منها الى أقصى المشارق والمغارب برا وبحرا ، وكذلك الشأن فى مدينة « يبورة » الأندلسية التى ترى التجارات فيهـا داخلة وخارجة .

وللغلات والمعادن نصيب كبير من اهتمام الأدريسى حين يصف البلاد والمدن . فمدينة « البصرة » بالمغرب بهـا غلات كثيرة ، وأكثر غلاتها القطن والقمح ، وسائر الحبوب . ومدينة « شنت مارية » الأندلسـية كثيرة الأعنـاب والتين ، ومدينة « قورية » بالأندلس فيها (أصناف من الفواكه كثـيرة ، وأكثرها الكروم وشجر التين) . ومدينة « طرطوشة » ينمو بجبالها خشب الصنوبر الذى لا يوجد له نظير فى الطول والغلظ ، ومنه تتخذ سوارى السفن وقراياها (١) . (وهذا الخشب الصنوبر الذى بجبال هذه المدينة أحمر صافى البشرة ، دسم لا يتغـير سريعا ولا يفعل فيه السوس ما يفعله فى غيره ، وهو خشب معروف منسوب) .

---

(١) القرايا : جمع قرية على وزن : هدية ، وهى عود الشراع الذى يجعل فى عرضه من أعلاه .

أما المعادن فقد اهتم الأدريسى بذكرها فى أماكن وجودها ، ففى قرية « بطرنة » الأندلسية معدن التوتية التى فاقت جميع معادن التوتية طيبا . وبقرب حصن فريش بالاندلس (مقطع للرخام الرفيع الجليل الخطير المنسوب اليه . والرخام الفريشى أجل الرخام بياضا ، وأحسنه ديباجا ، وأشده صلابة) . وفى أول القسم الخاص بأقليم الهند من كتاب « نزهة المشتاق » يتحدث الأدريسى عن الحديد فى مدينتين هناك بأرض سفالة (وليس بأيدى أهل هاتين المدينتين شيء يتصرفون به ويتعيشون منه الا الحديد ، وذلك أن بلاد سفالة يوجد فى جبالها معادن الحديد الكثيرة . ولا يوجد شيء من الحديد أمضى من الحديد الهندى، وهذا شيء مشهور لاتنكر فضيلته (١) .

وكما يهتم الأدريسى بالتجارة والغلات فأنه يهتم فى كل بلد بالحديث عن أهم الصناعات فيه . ففى مدينة سبتة بالمغرب تقوم صناعة المراكب وانشاء السفن . وفى مدينة « حصن قلبيره » الأندلسية تقوم صناعة السفن (لأنها دار انشاء السفن ، ومنها تخرج السفن الى أقصى المشرق ، ومنها يخرج الأسطول للغزو) . وفى مدينة « شاطبة » بالأندلس (يعمل من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض ، ويعم المشارق والمغارب) ، وفى مدينة « حصن بكيران » بالأندلس (تصنع ثياب بيض تباع بالأثمان

---

(٢) وصف الهند للادريسى : طبع الهند ص ١ ، ٢ .

الغالية ، ويعمر الثوب منها سنين كثيرة ، وهى من أبدع الثياب متانة ورقة ، حتى لا يفرق بينها وبين الكاغد فى الرقة والبياض). وفى مدينة « جنجالة » الأندلسية يصنع من وطاء الصوف ما لا يمكن صنعه فى غيرها لمناسبة الماء والهواء هناك لصناعته . وفى مدينة « المرية » بالأندلس تعمل الثياب ، والحلل ، والديباج، والسقلاطون (١) ، والأصبهانى ، والجرجانى ، والستور المكللة والثياب المعنية ، والخمر « جمع خمار » ، والعتابى ، والمعاجر ، وصنوف أنواع الحرير .

ويبدى الادريسى اهتماما خاصا بمصايد الأسماك، واللؤلؤ، والمرجان . وفى فصل من كتابنا هذا حديث عن وصف الادريسى لصيد اللؤلؤ من مغاصات جزيرة أوال فى البحرين . وقد وصف صيد السمك وخاصة التنين الكبير الذى يخرج من البحر قرب مدينة سبتة (وصيدهم له يكون زرقا بالرماح ، وهذه الرماح لها فى أسنتها أجنحة بارزة تنشب فى الحوت ، ولا تخرج . وفى أطراف عصيها شرائط القنب الطوال . ولهم فى ذلك دربة وحكمة سبقوا فيها جميع الصيادين ..) . أما صيد المرجان من شجره أو شعبه المرجانية فى مياه سبتة المغربية فقد تعرض له الادريسى، وان كان لم يحدثنا عن طريقة صيده كما حدثنا عن طريقة صيد اللؤلؤ من البحرين حديثا شائقا ممتعا ..

---

(١) نوع من النسيج الفاخر .

وحين يتحدث الأدريسى عن الأنهار التى يصفها فأنه يصف مجاريها واتجاهاتها ومنابعها وماءها وضفافها وما عليها من زراعات وأشجار . ففى حديثه عن مدينة وادى الحجارة بالأندلس يتحدث عن النهر الصغير الذى يجرى بجهة غربيها ، وهـذا النهر يجرى الى جهة الجنوب ، فيقع فى نهر تاجه الأكبر فيمده بالماء . ونهر تاجه المذكور يخرج من ناحية الجبـال المتصلة بالقلعة والفنت ، فينزل مارا مع الغرب الى مدينة « طليطلة » ثم الى « طلبيرة » ، ثم الى « المخاضة » ، ثم الى « القنطرة » ثم الى «قنيطرة محمود» ، ثم الى مدينة « شنترين » ، ثم الى « لشبونة (١) » فيصب هناك فى البحر .. وفى حديثه عن نهر « ابرة » بالأندلس يقول انه نهر كبير يأتى بعضه من بلاد الروم، وبعضه من جهة جبال قلعة أيوب وبعضه من نواحى « قلهرة » ، فتجتمع مواد هـذه الأنهار كلها فوق مدينة « تطيلة » (٢) ، ثم تنصب الى مدينة « سرقسطة » ، الى أن تنتهى الى «حصن حبرة » ، الى موقع الزيتون ، ثم الى « طرطوشة » فيجتاز بغربيها الى البحر .

ويلاحظ الأدريسى عملية نقل الأخشاب فى مياه الأنهار بكتلها دون شحنها فى مراكب ، فيصورها فى دقة ، كما فعل فى حديثه عن مدينة «قلصة» الأندلسية حيث يقول : (وقلصة حصن منيع

---

(١) لشبونة : عاصمة البرتغال اليوم ، وهى من أكبر موانى أوربة .

(٢) مدينة بشمالى أسبانيا اليوم على نهر الابرو ، وبها معامل للسكر .

يتصل به أجبل كثيرة بها شجر الصنوبر الكثير ، ويقطع بهـــا الخشب ويلقى في الماء ، ويحمل الى دانية والى بلنسية في البحر، وذلك أنها تسير في النهر من قلصة الى جزيرة شقر ، ومن جزيرة شقر الى حصن قاليبرة ، وتفرغ هناك على البحر ، فتملأ منهـا المراكب .. ولا تزال عادة ارسال الخشـب في النهر الى جزيرة شقر الى قلبيرة ـــ قاليبرة ـــ الى يومنا هذا) .

ولما كانت أسوار المدن جزءا هاما لأمن البلاد وسـلامتها ، فقد اهتم الأدريسى بوصف الأسوار على كل بلد يصفه أو يمر به، كحديثه عن سور مدينة « يبورة » بالأندلس ، وحديثه عن أسوار مدينة « ترجالة » الأندلسية التى تتصـف بالمناعة ، وحديثه عن سور مدينة « سرقسطة » الأندلسية ، وهو سور متين حصـين مبنى من الحجارة . فاذا لم يكن للبلد سور ولا حصن أشار الى ذلك ، كما فعل عند حديثه على مدينة « شنترين » الأندلسية التى لا سور لها .

ويؤكد الأدريسى أوصافه لما رآه بقوله : «رأيت ذلك عيانا»، أو غيره من العبارات الدالة على المعاينة كما سبق القول .

ويلجأ صـاحبنا الى الأطوال المعروفة في قياس المسـافات والأبعاد ، كالأميال والمراحل ، وقد يجمع بين الميل والمرحلة في مجـال واحد كقوله في الحديث عن بطليوس : (ومن مدينـة

بطليوس الى مدينة قرطبة على الجادة ست مراحل ، ومن بطليوس الى مدينة ماردة على نهر يانة شرقا ثلاثون ميلا) . وقد يقيس المسافة أحيانا بالأيام — ويعنى بذلك مسير الأيام — كما فعل فى قياسه لجبل الثلج فى « شنيل » الأندلسية ، فقد ذكر (ان طوله يومان وعلوه فى غاية الارتفاع ..) .

وحين يريد أن يؤكد وصف البلد أو المدينة فى عهده يشير الى ذلك بقوله : (ومدينة قرطبة فى حين تأليفنا هـذا الكتاب طحنتها رحى الفتنة) أو بمثل قوله : (وهى الآن — يعنى فى زمانه — خراب فى حال الذهاب) ، أو بمثل قوله عن مدينة أزيلا المغربية : (وهى مدينة صغيرة جدا ، وما بقى منها الآن الا نزر يسير) أو بمثل قوله عن مدينة طليطلة : (ومدينة طليطلة — فى وقتنا هذا — يسكنها سلطان الروم القشتاليين) .

وقدكان الأدريسى متفطنا الى تجمعات اليهود فى أرض الأندلس ، فقد كانوا يعيشون متجمعين فى مدن خاصة بهم أو أحياء خاصة بهم من المدن . وفى حديثه عن مدينة «طركونة» (١) الأندلسية يقول : (ومدينة طركونة على البحر وهى مدينة اليهود) . وفى حديثه عن مدينة « أليسانة » (٢) بالأندلس يذكر أنها مدينة

---

(١) من مدن أسبانيا اليوم واسمها TARRACONE

(٢) اليسانة : بلد باسبانيا اسمه اليوم LUCENA ويبلغ عدد سكانه ٢١ ألف نسمة كما جاء فى « الحلل السندسية » للأمير شكيب ارسلان .

اليهود ، ولها ربض ـــ أى ناحية ـــ يسكنه المسلمون وبعض اليهود .. واليهود يسكنون بجوف المدينة ، ولايداخلهم فيها مسلم ألبتة .. ولليهود بها تحذر وتحصن ..

وهكذا يكشف لنا هذا الرحالة الجغرافى اللماح عن أخلاق اليهود وخبثهم ومكرهم وتكتلهم وعزلتهم منذ قرون ..

بين الواقع والأساطير

يلفت نظرنا فى الفصل الذى كتبه المستشرق « بالنثيا » عن الشريف الأدريسى فى كتابه« تاريخ الفكر الأندلسى » أنه حين يتحدث عن مادة الأدريسى الوافرة عن البلاد الأوربية التى تقطنها شعوب نصرانية يقول أنه يطوى كتابه « نزهة المشتاق » على بعض أطراف من الخرافات التى كانت أوسع ما تكون انتشارا فى عصره .

والحق أن هذا الاتهام على ما فيه من اطلاق يحتاج الى كثير من النظر والمراجعة والتعديل .

واذا كان الأدريسى قد أطال مثلا فى الحديث عن يأجوج ومأجوج ، فانه معذور فى هذا فقد كان ناقلا عن بعض من سبقوا، وقد ذكر هو فى مقدمة « نزهة المشتاق » أسماء الذين نقل عنهم . وهذه المصادر العربية فى التاريخ والجغرافية التى نقل عنها

الأدريسى كانت مشحونة بالحديث عن يأجوج ومأجوج ، وهو حديث فيه كثير من الخرافة والأساطير . وقد دارت حول أمتى يأجوج ومأجوج حكايات وقصص هى أميل الى القصص الأسطورى منها الى الحقائق التاريخية . وتكفى نظرة الى ما كتبه المؤرخ ابن كثير فى ذلك فانها تدل على مبلغ ما تعرض له هذا الجيل من الأقاويل . وقد التمس كراتشكوفسكى العذر للأدريسى حين لاحظ اهتمامه بالكلام عن يأجوج ومأجوج ، وذكر أنهما شغلا مكانة كبيرة فى كل من الجغرافية العربية والجغرافية الأوربية فى العصور الوسطى . والحق أن اشتراك الجغرافية الأوربية فى الاشتغال بأساطير يأجوج ومأجوج هو دليل على المشاركة العالمية فى الانشغال ببعض الأساطير . فلم يكن العرب وحدهم ، ولم يكن الأدريسى وحده بدعا فى هذا .

ويتهم الأدريسى مرة أخرى بأنه حين وصف مدينة قريبة منه مثل مدينة رومة عاصمة ايطاليا فانه « يفعل ذلك فى أسلوب يذكر بحكايات ألف ليلة وليلة » . ويقصد المتهم هنا أن الادريسى يغالى فى الوصف الذى يبعد به عن الواقع الى حكايات الخيال والأساطير . والحق أن وصف الأدريسى لرومة كما يحمل بعض الخيال فانه يحمل كثيرا من الواقع ، ويكفى أن نسجل هنا بعض عبارات ذلك الوصف حيث يقول : (رومة هى على جانبى نهر الصفر — أى التيبر — وهى مدينة مشهورة ، ومقر خليفة

النصارى المسمى بالبابا ، وهى على جنوبى خور البنادقة . وبلاد رومة غربى قلفرية . ودور سورها أربعة وعشرون ميلا ، وهو مبنى بالآجر ، ولها واد يشق وسط المدينة ، وعليه قناطر يجاز عليها من الجهة الشرقية الى الغربية . وامتداد كنيسة رومة ستمائة ذراع فى مثله ، وهى مسقفة بالرصاص ، ومفروشة بالرخام ، وفيها أعمدة كثيرة عظيمة . وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوض رخام عظيم للمعمودية ، وفيه ماء حار أبدا . وفى صدر الكنيسة كرسى من ذهب يجلس عليه البابا ، وتحته باب مصفح بالفضة ، يدخل منه الى أربعة أبواب ، واحد بعد آخر ، يفضى الى سرداب فيه مدفون بطرس حوارى عيسى . ولهذه المدينة كنيسة أخرى مدفون فيها بولس ، وبحذاء قبر بطرس حوض رخام منقوش عظيم ، فيه فرش الكنيسة وستورها التى تزين بها فى أعيادهم) .

واذا كانت قصة الأخوة المغررين التى ذكرها الأدريسى فى خلال حديثه عن مدينة لشبونة تحمل بعض العناصر التى يراها بعض الباحثين أسطورية ، فانه لا محل للمقارنة بينها وبين قصة القديس براندان لمحاولة الكشف عن مصدر واحد مشترك بين القصتين . وقد عاش هذا الراهب البحار الرحالة فى القرن الخامس المسيحى . ويقول الأب أنستاس مارى الكرملى ان أول من انتبه للرحلة غربا راهب اسمه براندان المولود سنة ٤٨٣ م وهو من أصل شريف يرتقى الى ملك ايرلنده .. ففى عام ٥٤٥ م — أى

قبل ظهور الأسلام ومبعث نبيه عليه السلام — تهيأ لتحقيق ما يختلج فى صدره من الأمانى مع أربعة عشر راهبا من مقتحمى الأهوال ، فابتنوا مركبا كبيرا ليستكشفوا ما هناك ... وفى سنة ٥٥٢ م نزل براندان ورفاقه على ساحل أمريكا ...

وينكر الأستاذ عباس محمود العقاد أن يكون كولمبوس مدينا بالفضل فى معرفة العالم الجديد لمراجع من القرن الخامس للمسيح

وحين تعرض الأدريسى فى القسم الخاص من «نزهة المشتاق» لوصف بلاد الهند ، فانه ذكر جزيرة « هركند » وذكر أن (بها الجبل الذى أهبط عليه آدم ، وهو جبل سامى الذروة ، عالى القمة ، ذاهب فى الجو ، يراه البحريون فى مراكبهم على مسيرة أيام (١) ...) وللمفسرين والمؤرخين وعلماء المسلمين فى اسم المكان الذى اهبط عليه آدم كلام كثير . ولا بأس ان نحيل القارىء هنا ألى كتاب « الكامل » لابن الأثير ، فليس هنا مجال تفصيل . ولكن الأدريسى أوجز الخبر فى سطر واحد ، هو من منقولاته الكثيرة . ولم يكن الادريسى فى مجال التحقيق لمكان هبوط آدم. لأنه لا مجال للتحقيق أو القطع فيه برأى . فاكتفى بهذه الأشارة العابرة .

على أن الأدريسى حين يتلقى أو ينقل أو يسمع خبرا لا يقبله

---

(١) وصف الهند — ص ٧

العقل فانه ــ غالبا ــ لا يتردد فى رفضه أو اظهار الشك فيه . ففى حديثه عن أغربة (كنيسة الغراب) بالأندلس يذكر أن (قسيسى تلك الكنيسة يخبرون عن تلك الأغربة بغرائب يتهم المخبر بها ..) وليس أبلغ ولا أوجز من هذا التعبير فى التشكيك ورفض الخبر ...

وقد يقف الأدريسى أمام بعض الأمور التى شاهدها أو سمعها بالأندلس مثلا موقف القبول اذا لم يبد للعقل استحالتها . ففى حديثه عن مدينة سرقسطة الأندلسية ذكر أن (من خواصها أنها لا تدخلها حية البتة ،وان جلبت اليها وأدخلت المدينة ماتت وحيا ــ أى سريعا ــ بلا تأخير ...) ولم يعلق الأدريسى على هذا برفض أو قبول . على أنه ليس فى الطبيعة ما يناقضه أو يناهضه .

وقد وقف الادريسى فى مدينة « المنكب » (١) بالأندلس أمام بناء مربع قائم كالصنم ، أسفله واسع ، وأعلاه ضيق (وبه حفيران من جانبيه متصلان من أسفله الى أعلاه ، وبأزائه من الناحية الواحدة فى الأرض حوض كبير يأتى اليه الماء من نهر ميل، على ظهر قناطر كثيرة معقودة من الحجر الصلد ، ، فيصب ماؤه فى ذلك الحوض . ويذكر أهل المعرفة من أهل المنكب أن ذلك الماء كان يصعد الى أعلى المنار ، وينزل من الناحية الأخرى ، فيجرى

(١) مدينة المنكب بالأندلس يسميها الاسبانيون اليوم almunecar وهو تحريف واضح .

هناك الى رحى صغيرة كانت ، وبقى موضعه الآن على جبل مطل على البحر ، ولا يعلم أحد ما المراد من ذلك ..) فالادريسى هنا ينقل ما يقوله أهل المنكب عن هذا البناء العجيب ولكنه لا يدرى العلة فى بنائه وفى صعود الماء اليه وانصبابه من أعلاه ، ويتحاشى الرجل أن يشير الى خرافة أو أسطورة مما كان يتناقله المحدثون عن هذا البناء العجيب .

وحين يتحدث الأدريسى عن حيوان الكركدن فى بلاد الهند — أو فى جزيرة سرنديب بصفة خاصة — فانه يتعرض لوصف قرون تلك الدابة العظيمة ، فيقول رواية عن غيره : (وفيما يذكر أنه توجد فى بعض هذه القرون فى جوفها — اذا هى شقت — صورة انسان أو صورة طائر أو غيره من الصور كاملة الشكل بيضا . وهذا القرن الذى توجد فيه هذه الصورة يصنع منه مناطق تساوى من القيمة كثيرا ، وتكون الصورة التى توجد فيه من أوله الى آخره ..) (١) . وقد يتخيل لأول وهلة أن وجود صورة انسان أو طائر أو غيره فى شق من قرن الكركدن هو ترديد من الأدريسى لأسطورة لا تمت بصلة الى الواقع ... والواقع أن « التجازيع » التى توجد داخل الشق قد تحمل صورا غريبة قريبة الشبه من الوجوه البشرية والحيوانية ، كالذى نجده من بعض الصخور حين نشقها ، أو كالذى تفعله الطبيعة — عن غير قصد —

(١) وصف الهند ، ص ١٣

من تشـــكيل حجارة الاستالاكتيت والاســـتالجمايت فى المغارات المشهورة بأشكال انسانية ونباتية وحيوانية عجيبة ، كالذى نجده فى مغارة قاديشا بلبنان ، وفى مغارة مدينة باث بانجلترة .

على أن الأدريسى حين يرى الأسطورة أو الخرافة صـــارخة ومنافية للعقل والطبع فانه لا يتردد فى تكذيبها واظهار استحالتها، كالذى فعله حين نقل ما قاله الجاحظ فى « الحيوان » عن دابة الكركدن من أنها (تقيم فى جوف أمها سبع سنين ، وأنها تخرج رأسها وعنقها من فرج أمها فترعى الحشيش ، ثم تعيد رأسها الى جوف أمها ، فاذا ابتدأ تكون قوتها امتنعت من الخروج للرعى على حسب عادتها ، فتنقر فى جوف أمها ، حتى تبقر جوفها وتخرج منه وتموت الأم ...) فقد علق الأدريسى على هذا الكلام بقوله : (وهذا محال من قوله غير مسموع ، لأن الأمر لو كان كما وصفه لفنى هذا النوع ، حتى لا يوجد الا ذكره ..) (١) .

ويذكرنا هذا بالتعليق الذى علق به المسعودى المؤرخ على كلام الجاحظ فى موضوع الكركدن ذاته ، ولا بأس هنـــا من ايراده . قال المســـعودى المتوفى ســـنة ٣٤٦ هـ والسابق على الأدريسى بأكثر من قرنين من الزمان : (فبعثنى هذا الوصف ـــ يعنى خروج رءوس أولاد الـــكركدن من بطون أمهاتهـــا للرعى وعودتها الى داخل البطن ـــ على مسألة ـــ أى سؤال ـــ من

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٢ ، ١٣

سلك الديار من أهل سيراف ، وعمان ، ومن رأيت بأرض الهند من التجار . وكل يتعجب من قوله — يعنى من قول الجاحظ الذى سبق ذكره — اذا أخبرته بما عندى من هذا وسألته عنه . ويخبروننى أن حمله وفصاله كالبقر والجواميس . ولست أدرى كيف وقعت هذه الحكاية للجاحظ ؟ أمن كتاب نقلها ، أم مخبر أخبره بها ؟؟)

وحادثة أخرى تدل على مبلغ تشكك الأدريسى فى قبول الأخبار التى تحمل طابع الخرافات والأساطير ، فانه شك فى الذى رواه المسعودى عن شجرة بجزائر الوقواق تحمل كل عام رءوس نساء بدلا من حمل الثمار العادية والفاكهة . ورأى فيها أنها غير جديرة بالذكر ، على حين أن « الزهرى » الأندلسى قد روى هذه الحكاية بتفصيل وبسرد يوهم أنها تدخل فى باب الواقع من الحياة ...

وصاف المدن

جرت عادة الرحالين العرب أن يصفوا المدن الصغيرة والكبيرة التى يمرون عليها . وهذه الأوصاف تختلف تبعا لعين الواصف ودقة ملاحظته ، وتبعا لاهتماماته بأنواع معينة من الوصف ، كما أنها تختلف تبعا للزاوية التى ينظر اليها منها .

ولقد وصف الشريف الأدريسى مدن البلاد التى زارها ، وخاصة الأندلس والمغرب ، ووصف مدن صقلية كذلك بحكم اقامته فيها شطرا كبيرا من عمره . أما بقية البلا د التى لم يزرها فقد رجع فى صفتها الى الذين كتبوا قبله من الرحالة والجغرافيين. وفى مقدمته لكتاب « نزهة المشتاق » يعد لنا طائفة من الكتب التى رجع اليها فىوصف الأقاليم وما فيها من مدن ، كما سبقت الأشارة الى ذلك فى فصل سابق .

ولم يكد الأدريسى يدع مدينة من مدن الأندلس الا وصفها

وصف الخبير ، فاذا مر بمدينة سجل أهم ما تتميز به من معالم طبيعية ، ووصف النهر الذى تقع عليه ، أو البحر القريب منها ، وذكر أسوارها وأبوابها وحصونها ، ومعادنها وغلاتها الزراعية ، ومعابدها وأسواقها ، وتجارتها . ثم يأخذ فى نعت ما تتميز به غلاتها ، ولا يفوته أن يصف أهلها ويتحدث عن عاداتهم . ونراه يطيل فى الوصف أو يوجز تبعا لأهمية المدينة وتعدد جوانب الوصف فيها .

وقد يشير الى ناحية من تاريخها وما مر بها من أحداث كبار. ففى وصفه لمدينة طليطلة بالأندلس يقول انها كانت فى أيام الروم مدينة الملك ومدارا لولاتها . وفى وصفه لمدينة « الجزيرة الخضراء » الأندلسية يقول انها (مدينة متحضرة لها سور حجارة مفرغ بالجيار ، ولها ثلاثة أبواب ، ودار صناعة داخل المدينة ، ويشقها نهر يسمى نهر العسل ، وهو حلو عذب ، ومنه شرب أهل المدينة ، ولهم على هذا النهر بساتين وجنات بكلتى ضفتيه معا . وبالجزيرة الخضراء انشاء واقلاع وحط ، وبينها وبين مدينة سبتة مجاز البحر ، وعرضه هناك ثمانية عشر ميلا) . فانظر كيف تحدث عن المدينة حديثا موجزا جامعا لأشهر معالمها وخصائصها ومميزات نهرها . وانظر كيف تحدث عن مجاز البحر بينها وبين مدينة سبتة التى تقع مقابلها على الشاطىء الأفريقى بالمغرب ، وانظر كيف ذكر عرض هذا المجاز أو الممر البحرى بالأميال .

وحين يتحدث الادريسى عن مدينة « أشـبيلية » بالأندلس يذكر أنها (مدينة كبيرة عامرة ذات أسوار حصينة . وأسـواق كثيرة ، وبيع وشراء . وأهلهـا مياسير ، وجل تجارتهـا بالزيت يتجر به من أقصى المشارق والمغارب ، برا وبحرا ، وهذا الزيت عندهم يجتم من « الشرف » وهذا الشرف هو مســافة أربعين ميلا ، وهــذه الأربعون ميلا كلها تمشى فى ظل شــجر الزيتون والتين) .

وفى وصف مدينة « شنت مارية » بالأندلس يقول الأدريسى : (ومدينة شنت مارية على معظم البحر الأعظم ، وسورها يصعد ماء البحر فيه اذا كان المد . وهى مدينة متوسطة القدر ، حسنة الترتيب ، لها مســجد جامع ومنبر وجماعة . وبها المراكب واردة وصادرة ، وهى كثيرة الأعناب والتين) .

فاذا انتقلنا مع الأدريسى الى مدينة « ماردة » رأيناه يصفها قائلا : (ومدينة ماردة كانت دار مملكة لماردة بنت هرســوس الملك . وبها من البناء آثار ظاهرة ، تنطق عن ملك وقدرة ، وتعرب عن نخوة وعزة ، وتفصح عن غبطة . فمن هذه البناءات أن فى غرب المدينة قنطرة كبيرة ذات قسى ، عالية الذروة ، كثيرة العــدد ، عريضة المجاز . وقد بنى على ظهر القسى أقباء تتصل من داخل

(١) اسمها الآن بالاسبانية : MERIDA وهى فى جنوبى شرقى أسبانيا على الخط الحديدى بين مدريد وبطليوس

المدينة الى آخر القنطرة ، ولا يرى الماشى بها . وفى داخل هذا الداموس قناة ماء تصل المدينة . ومشى الناس والدواب على تلك الدواميس . وهى متقنة البناء ، وثيقة التأليف ، حسنة الصنعة . والمدينة عليها سور حجارة منجورة من أحسن صنعة وأوثق بناء . ولها فى قصبتها قصور خربة .. وفى الجنوب من سور هذه المدينة قصر آخر صغير ، وفى برج منه كان مكان مرآة ، كانت الملكة « ماردة » تنظر الى وجهها فيها ، ومحيط دوره عشرون شبرا ، وكان يدور على حرفه ، وكان دورانه قائما . ومكانه الآن باق . ويقال انما صنعته « ماردة » لتحاكى به مرآة ذى القرنين التى صنعها فى منار الاسكندرية ..) .

وهكذا نجد أوصافا دقيقة ممتعة لكل مدن الأندلس التى زارها الادريسى ، ووصفها عن معاينة ، مثل مدينة قلمرية ، وشنترين ، وطليطلة ، وسرقطة ، وبلنسية ، ومرسية ، والمرية وغيرها .

وكان لبلاد المغرب نصيب من الوصف عند الشريف الأدريسى فى كتابه « نزهة المشتاق » . وكان لمدينة « سبتة » — وهى مسقط رأسه — نصيب لا بأس به من الوصف ، ولا بأس من ايراد بعض صفته لها حين يقول : (فأما مدينة سبتة فهى تقابل الجزيرة الخضراء ، وهى سبعة أجبال صغار متصلة بعضها ببعض معمورة. طولها من المغرب الى المشرق نحو ميل . ويتصل بها من جهة

الغرب ، وعلى ميلين منها ، جبل موسى . وهذا الجبل منسوب لموسى بن نصير . وهو الذى كان على يديه افتتاح الأندلس فى صدر الاسلام . وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة، وقصب سكر ، وأترج يتجهز به الى ما جاور سبتة من البلاد ، لكثرة الفواكه بها . ويسمى هذا المكان الذى جمع هذا كله : بليونش . وبهذا الموضع مياه جارية ، وعيون مطردة ، وخصب زائد . ويلى المدينة من جهة المشرق جبل عال يسمى : جبل المنية، وأعلاه بسيط ، وعلى أعلاه سور بناه محمد بن أبى عامر عندما جاز اليها من الأندلس ، وأراد أن ينقل المدينة الى أعلى هذا الجبل ، فمات عند فراغه من بنيان أسوارها . وعجز أهل سبتة عن الانتقال الى هذه المدينة المسماة بالمنية ، فمكثوا فى مدينتهم ، وبقيت « المنية » خالية ، وأسوارها قائمة ، وقد نبت حطب الشعراء فيها . وفى وسط المدينة بأعلى الجبل عين ماء لطيفة لكنها لا تجف البتة .. وبمدينة سبتة مصايد للحوت ، ولا يعدلها بلد فى أصابة الحوت وجلبه ، ويصاد بها من السمك نحو من مائة نوع. ويصاد بها السمك المسمى بالتنين الكبير ، وصيدهم له يكون زرقا بالرماح ..) .

وقد وصف الأدريسى من بلاد المغرب ومدنه : قصر المصمودة، وطنجة ، وقصر عبد الكريم ، وأزيلا ، والبصرة المغربية ــــ وهى

غير البصرة العراقيــة بالطبــع ــ وفاس ، وأغمــات ، ومليلة . وندرومة ، وهنين ، ووهران وغيرها .

ولم يفت الأدريسى أن يصف مدن صقلية فى عهد مقامه بها . ووصــفه لمدينة بلرم الصــقلية يجمع بين الدقة والطرافة ، وفيه يقول : (ان بها ــ يعنى مدينة بلرم ــ أحسن المبانى التى سارت الركبان بنشر محاسنها ، فى بنائهــا ودقائق صناعاتها ، وبدائع مخترعاتها . وهى على قسمين : قصر ، وربض ، فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره فى كل بلد واقليم . وهو فى ذاته على ثلاثة أسمطة : فالسماط الأول يشتمل على قصــــور منيفة ، ومنازل شامخة شريفة ، وكثــير من المســاجد والفنادق والحمــامات ، وحوانيت التجار الكبار . والسماطان الباقيان فيهما أيضا قصور سامية ، ومبان فاخرة عالية ..) .

ولما كان الأدريسى قد زار عددا غــير قليل من بــلاد أوربة وخاصة ايطاليا فأننا نورد هنا قطعة من وصفه لمدينة « رومة » حيث يقول : (رومة هى على جانبى نهر الصفر ــ يعنى التيبر ــ وهى مدينة مشهورة ، ومقر خليفة النصارى المسمى بالبابا ، وهى على جنــوبى خور البنــادقة . وبلاد رومة غربى قلفرية . ودور سورها أربعة وعشرون ميلا ، وهو مبنى بالآجر ، ولها واد يشق وسط المدينة ، وعليه قناطر يجاز عليهــا من الجهة الشرقية الى الغربية . وامتداد كنيســة رومة ســتمائة ذراع فى مثله ، وهى

مسقفة بالرصاص ، ومفروشة بالرخام ، وفيها أعمدة كثيرة عظيمة. وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوض رخام عظيم للمعمودية ، وفيه ماء جار أبدا . وفى صدر الكنيسة كرسى من ذهب يجلس عليه البابا . وتحته باب مصفح بالفضة يدخل منه الى أربعة أبواب واحد بعد آخر ، يفضى الى سرداب فيه مدفون بطرس حوارى عيسى) (١) .

واهتمام الادريسى بأمكنة العبادة فى المدن التى يصفها ملحوظ معروف . ولا ننسى وصفه لكنيسة الغراب بالأندلس . وتجد أشارة له فى موطن آخر من كتابنا هذا حين تحدثنا عن منهج الشريف الأدريسى فى وصف البلاد .

ولقد وصف الادريسى مدنا من آسيا الصغرى فى خلال رحلته هناك ، ومن ذلك وصفه لمدينة يزمير أو أزمير التركية . كما نجد له أوصافا لمدن صيدا ، وبيروت وبيت لحم فى فلسطين . وان كان لم يتأكدلنا زيارته لتلك البلاد ، وهو هنا ناقل عن أوصاف غيره .

وكذلك لم يتأكد لنا زيارة الأدريسى للهند ، وان كان قد ضمن كتابه « نزهة المشتاق » أوصافا لبلاد الهند ومدنها ، وبالطبع هو هنا ناقل أيضا ، شأنه فى ذلك شأن بقية البلاد والأقطار التى لم تطأها قدماه . ونلاحظ فى القسم الخاص بالهند من كتابه

---

(١) أوردنا بعض بما قاله الأدريسى فى وصف رومة فى الفصل الذى عنوانه « بين الواقع والاساطير » ولا تكرار هنا بل جئناه للمناسبة .

« نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق » أنه وصف مدنا هندية كثيرة وجزرا غير قليلة تجاورها ، فوصف سرنديب ، وجزيرة الرامى ، والديبل ، والنيرون ، والمنصورة ، ومهران ، وقالرى . والرور ، وشروسان ، وفيربوز ، والملتان ، ومامهل ، وكنباية وغيرها .

وقليل من المدن التى وصفها الأدريسى فى كتابه قد اندثر وضاعت معالمه ، وبقى الكثير منها الى اليوم بعد أن تجددت معالمه ، وتغيرت ملامحه بالهدم والبناء ، والاضافة والتوسع ، والتخطيط الجديد . ومن هنا كانت القيمة التاريخية لأوصاف تلك المدن ، لترينا الصورة الحقيقية لها فى العصر الذى وصفها فيه الشريف الأدريسى .

وصّاف البحار

من المؤكد أن الشريف الأدريسى قد ركب لجة البحر المتوسط — البحر الأبيض المتوسط — غير مرة ، وأنه ركب لجة المحيط فى جولة حول الشاطىء الغربى للأندلسى . ولا نعرف أنه عبر البحر الأحمر أو المحيط الهندى ، لأن أوصافه لآسيا والهند كانت نقلا عن رحلات الجوابين العرب الذين سبقوه . ومع هذا فأننا نجد من الأدريسى اهتماما بالغا بصفة البحار وما يكتنفها من مظاهر طبيعية ، وما يسكنها من عجائب البحر ، ومن يعيش فى الجزر من أقوام غريبى العادات والطباع .

ويظهر أن هذه الناحية من وصف البحار وظواهرها قد فتنته الى حد بعيد ، فهو حريص على ابرازها فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » فى الموضع الذى يلائم ايرادها فيه .

وقد يصادف راكب البحر نوع من الدوامات المائية الشديدة

التى تدور فيها الأمواج بشــدة عاصــفة فتبتلع المراكب العالية كالجبال وتلتهمها فى لحظات ، وهى دوامات شديدة الخطر على الملاحة والملاحين . وتســمى الدرادير ، ومفردها دردور . ونجد الأدريسى يصف الدردور بقوله : (والدردور موضع يدور فيه الماء كالرحى دورانا دائما من غير فترة ولا سكون ، فاذا سقط اليه مركب أو غيره لم يزل يدور حتى يتلف ..) .

وقد تنبه الأدريسى عن طريق من سبقه من الرحالين العرب الى الأجوان التى تقع حول جزيرة سرنديب جنوبى بلاد الهند ، فوصفها قائلا : (ويحاذى هذه الجزيرة من أرض الهند أغباب ، وهى أجوان تقع فيها أنهار ، وتسمى أغباب سرنديب ، وتدخلها المراكب السيارة ، وتمر فيها الشهر والشهرين) .

ويبدو أن الادريسى نقل معارفه عن هذه الأغباب والأخوار عن أبى الريحان البيرونى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ . وعن أبى زيد حسن السيرافى الذى التقى مع المســعودى المؤرخ فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى وأعطاه بعض الأخبار عن البحار الهندية . وقد يكون من الملائم أن نسجل هنــا ما قاله البيرونى وأبو زيد السيرافى عن هذه الأغباب، فنبدأ بالبيرونى حيث يقول: (الغب ، وهو كالزاوية والعطفة ، يدخل من البحر الى البــر ، ويكون للسفن منه مخاوف ، وخاصــة من جهة المد والجزر . والخور هو شــبه الغب ، ولكنه ليس من جهة دخول البحر ،

وأنما هو من مجىء الميـــاه الجارية ، واتصاله بالبحر ساكنا . ومخاوف السفن من جهة العذوبة التى لا تستقل بالأثقال استقلال الملوحة بها) . أما الســيرافى فيقول : (ويحاذى هـــذه الجزيرة ـــ يعنى سرنديب ـــ أغباب واسعة . ومعنى الغب الوادى العظيم اذا أفرط فى طوله وعرضـــه ، وكان مصـــبه الى البحر . يســـير المجتازون فى هذا الغب المعروف بغب سرنديب بين شهرين وأكثر) .

وبمناسبة أغباب سرنديب ، قديكون من الملائم أن نسجل هنا ما دونه الأدريسى فى « نزهة المشتاق » عن هذه الجزيرة وملكها وسكانها وغلاتها ، فيقول : (ومن الجزائر المشهورة فى هـــذا البحر المســـمى هركند ، جزيرة سرنديب ، وهى جزيرة كبـــيرة مشهورة الذكر ، وهى ثمانون فرسخا فى ثمانين فرسخ ـــ كذا ـــ وملك هذه الجزيرة يسكن من هذه المدن « أغنا » ، وهى مدينة القصر ، وبها دار ملكه . وهو ملك عادل كثير السياسة ، يقظان الحراســـة ، ناظر فى أمور رعيتـــه ، حافظ لهم ، وذاب عنهم .. وليس يملك أحد من ملوك الهند ما يملكه صاحب سرنديب من الدر النفيس ، والياقوت الجليل ، وأنواع الأحجار ، لأن أكثر ذلك موجود فى جبال جزيرته ، وفى أودبتها وبحرها . واليهـــا تقصد مراكب أهل الصين وسائر بلاد الملوك المجاورين له (١) .

---

(١) وصـــف الهند وما يجاورها من البلاد . للادريسى تحقيق الدكتور مقبول أحمد ـ الهند سنة ١٩٥٤ .

وقد ترك لنا الأدريسى فى « نزهة المشتاق » ، وفى القسم الخاص بالأندلس وصفا جيدا دقيقا للمحيط الأطلسى وأمواجه ورياحه ودوابه وجزره فقال : (.. وهذا الرأس هو فى أقصى المغرب فى نهاية انتهاء المعمور من الأرض ، محصور فى البحر المظلم ، ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم ، ولا وقف بشر منه على خبر صحيح ، لصعوبة عبوره ، وظلام أنواره ، وتعاظم أمواجه ، وكثرة أهواله ، وتسلط دوابه ، وهيجان رياحه . وبه جزائر كثيرة ، ومنها معمورة ومغمورة ، وليس أحد من الربانين يركبه عرضا ولا ملججا (١) ، وانما يمر منه بطول الساحل ولا يفارقه . وأمواج هذا البحر تندفع منفلقة كالجبال لا ينكسر ماؤها ، والا فلو تكسر موجه لما قدر أحد على سلوكه) .

وقد نقل الأدريسى عن المسعودى صاحب « العجائب » وصفا لجبل المغناطيس الذى يجذب اليه المراكب فقال : (ومن منبسة الى مدينة البايس فى البر ستة أيام وفى البحر مجرى ونصف ... ومدينة البايس هى آخر عمالة الزنج ويتصل بها أرض سفالة الذهب . فمنها على الساحل الى مدينة تسمى « تبهنة » ثمانية أيام فى البر ومجرى ونصف فى البحر ، وذلك لأن ما بين هاتين المدينتين جونا كبيرا .. وبين هاتين المدينتين فى البحر جبل عال عريض يقال له عجرد ، والماء قد حفر جوانبه من كل ناحية ،

(١) أى داخلا فى لجة الماء .

فيصوت الموج به صوتا هائلا . وهذا الجبل المذكور يجتذب إلى نفسه من المراكب مالاصقه ، فالمسافرون يتنحون عنه ، ويفرون منه) .

ولم يفت الأدريسى أن ينقل فى كتابه وصفا للبال أو الحوت من دواب البحار ، فقال : (ومن هذا البحر يخرج العنبر الكثير الطيب الرائحة . وقد توجد منها العنبرة من قنطار وأكثر وأقل . وهو شىء تقذفه عيون فى قعر البحر مثـــل ما تقذف عيون هيت ـــ بالعراق ـــ بالنفط ، فاذا اشـــتد هيجـــان الريح رمى به إلى الســـاحل . وقد زعم البعض أنه روث دابة ولكنه ليس كذلك . ويوجد ببحر الصين والهنـــد دواب كبيرة طولهـــا مائة ذراع ، وعرضها أربعة وعشرون ذراعا ، ينبت بظهرها الصخر والذبل ، وقد تتكسر عليه المراكب . ويحكى البحريون أنهم يهاجمون هذه الدواب بالســـهام ، ويحملونها على تغيير طريقها ، ويمســـكون الصغار منها ، ويحمون على لحمها فى القدور ، فيذوب شحما)

ويعود الأدريسى مرة أخرى الى وصف «البال» أو «الحوت» فى المحيط الأطلسى فيقول : (وبرغم ما يكتنف هـــذا البحر من أهوال ، ومع كثافة أمواجه ، فان به السمك الكثير يصيدونه فى أمكنة معلومة . وبه دواب بحرية تبلغ من عظم الجرم ما يجعـــل أهالى تلك الجزر يســـتعملون عظامهـــا وفقارها بدل الخشب فى

أبنيتهم ، ويصطفون منهـا مطارق وسـهاما ورماحا وخنـاجر ، ومقاعد ، وسلالم ، وبالجملة كل ما يصنع من الخشب) .

وقد نقل أيضا وصـفا « للبابة » وهى دابة بحرية عظيمة ، ووصـفه للبابة قريب من صفته للبال أو الحوت ، ولعله هو أو قريب منه . فيقول فى صفتها : (والبابة دابة كبيرة تكون فى بحر الهنـد والصين ، منهـا ما يكون طوله نحوا من مائة ذراع فى عرض عشرين ذراعا ، ينبت على سنام ظهرها حجارة صـدفية ، وربما تعرضت للمراكب فكسرتها . وحكى أيضـا الربانون أنهم يرشقونها بالسـهام فتتنحى عن طريقهم ، وذكروا أيضـا انهم يتصيدون بأصغر منها ، فيطبخونها فى القدور ، فيـذوب جميع لحمها ، ويعود شحما مذابا) . ويلاحظ القارىء الكريم أن وصف البابة هنا يكاد يكون فى كثير من عباراته وألفاظه وصـف البال أو الحوت الذى ذكرناه قبل هذا بسطور .

وقد وصف الأدريسى غرائب أهل الجزر فى بعض البحـار والمحيطات ، ومنها هؤلاء القوم السود العراة فى جزيرة جالوس بالمحيط الهندى ، فانهم يأكلون الناس (وذلك انه اذا سـقط فى أيديهم انسان من غير بلادهم علقوه منكسا ، وقطعوه وأكلوه قطعا . وذكر بعض رؤساء المراكب أن أهل هذه الجزيرة أخذوا

رجلا من أصـــحابه ، فنظر اليهم ، حتى علقوه وقطعــوه قطعا وأكلوه ..) (١) .

وكانت كثرة المراجع والمصادر لدى الأدريسى عونا له على أن يتخير منها مادة مادة طيبة للموضوع الذى يتحدث عنه متصـلا بالبحار . وما أكثر وأدق حديثه عن اللؤلؤ وصيده فى البحرين قائلا : (وأهم جزر البحرين جزيرة أوال .. وفى هــذه الجزيرة يسكن غاصة اللؤلؤ فى المدينة التى يصل اليها التجار من جميع أنحاء الأرض ومعهم المال الوفير ، ويترقبون شهورا طوالا موسم الغوص . ويستأجر التجار الغاصة مقابل جعل معلوم يتفاوت مع جودة الصيد واعتقاد التجار بمهارة الغاصة . ويكون الغوص فى أغشت (٢) وشتنبر وقبل هذا اذا كانت المياه صافية . ويصطحب كل تاجر الغواص الذى اكتراه . وتخرج المراكب جماعة من الميناء فيما ينيف على مائتى دونج ، وهى فلك أكبر من الفلك العادى يقسم التجار سطحها الى خمس أو ست بلنجات منفصلة ، ومع كل غواص رفيق مساعد اسمه « المصفى » له نصيب فى الكراء . ويخرج مع الغاصة أدلاء حذاق يعرفون المواضع ، لأن للأصداف مواضع تغشاها ، تذهب اليها وتخرج منها حسب الوقت وتعرفها ،

---

(١) وصف الهند للادريسي . طبعة الهند ص ١٨ .

(٢) يريد شهرى أغسطس وسبتمبر .

فاذا خرج الغاصة(١) من جزيرة أوال قادهم الدليل، حتى اذا وصلوا الى المواضع المعلومة خلع الدليل ملابسه وغاص ونظر . فاذا وجد المكان مناسبا خرج وأمر بطى الشراع ورمى الأناجر ، وكذلك تفعل بقية الدوانج . ويبدأ الغواصون فى العمل) .

ويمضى الأدريسى فى وصف عملية الصيد منذ أن يستتر الغواص سوءته ، ويسد خياشيمه ، ويحمل سكينه وكيسه والحجر الثقيل المعلق بخيط رفيع متين ، الى أن يخرج من قعر البحر حاملا صيده الثمين فيلبس ملابسه وينام ، وهنا يأخذ « المصفى » فى فتح المحار بحضور التاجر الذى يجمع ما يخرج من اللؤلؤ ويسجله فى زمام (٢) .. ويأكل الجميع قبيل المغرب ، وينامون طول الليل استعدادا لعمل شاق مقبل فى يوم جديد .

الحق أننا نعيش مع الأدريسى فى « نزهة المشتاق » ساعات غير قليلة فى قراءة أوصافه الممتعة الغريبة للبحار وغرائبها ، مما يؤكد لنا اهتمامات هذا الرجل — حتى ولو كان ناقلا — بهذا العالم الغنى العجيب ..

---

(١) الغاصة جمع غائص ، وهو الغواص الذى يغوص فى الماء .

(٢) الزمام هو دفتر أو سجل خاص يدون فيه الانسان ما يريد تدوينه وهو تعبير اصطلاحى .

الإدريسي ورحلة المغرّرين

حين تحدث الأدريسي فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » عن مدينة لشبونة أشار الى جماعة من فتيان العرب اسمهم « المغررون » خرجوا فى مغامرة بحرية كشفية الى المحيط ليعرفوا ماوراءه ، ولهم فى لشبونة حتى العصر الذى عاش فيه الأدريسي دزب ينسب اليهم يعرف بدرب المغررين . و لابأس أن نسجل هنا هذه القصة بقلم الأدريسي نفسه لما فيها من طرافة من جهة ، ولكيلا يخل التصرف بمعانيها الصحيحة من جهة أخرى . يقول الادريسي فى النزهة : (ومن مدينة لشبونة كان خروج المغررين فى ركوب بحر الظلمات ، ليعرفوا ما فيه والى أين انتهاؤه كما تقدم ذكرهم ، ولهم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحمة درب منسوب اليهم يعرف بدرب المغررين الى آخر الأبد . وذلك أنه اجتمع ثمانية رجال ، كلهم أبناء عم ، فأنشأوا مركبا حمالا وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر . ثم دخلوا البحر فى

أول طاروس الريح الشرقية، فجروا بها نحوا من ١١ يوما، فوصلوا الى بحر غليظ الموج ، كدر الروائح كثير التروش ، قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف ، فردوا قلاعهم فى اليد الأخرى ، وجروا فى البحر فى ناحية الجنوب ١٢ يوما ، فخرجوا الى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم مالا يأخذه عد ولا تحصيل ، وهى سارحة لا راعى لها ، ولا ناظر اليها . فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها ، فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برى ، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها ، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها فأخذوا من جلودها ، وساروا مع الجنوب ١٢ يوما الى أن لاحت لهم جزيرة ، فنظروا فيها الى عمارة وحرث ، فقصدوا اليها ليروا ما فيها ، فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم فى زوارق هناك ، فأخذوا وحملوا فى مركبهم الى مدينة على ضفة البحر ، فأنزلوا بهـا فى دار ، فرأوا رجالا شقرا زعرا شعور رءوسهم ، شعورهم سبطة ، وهم طوال القدود، ولنسائهم جمال عجيب ، فاعتقلوا منها فى بيت ثلاثة أيام ، ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربى ، فسألهم عن حالهم وفيما جاءوا ، وأين بلدهم ، فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيرا ، وأعلمهم أنه ترجمان الملك . فلما كان فى اليوم الثانى من ذلك اليوم أحضروا بين يدى الملك ، فسألهم عما سألهم الترجمان عنه ، فأخبروه بما أخبروه به للترجمان بالأمس : من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب ، ويقفوا على نهايته . فلما

علم الملك ذلك ضحك ، وقال للترجمان : خبر القوم أن أبى أمر قوما من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا فى عرضه شهرا، الى أن انقطع عنهم الضـــوء ، وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى . ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خـــيرا ، وأن يحسن ظنهم بالملك ، ففعل . ثم صرفوا الى موضع حبسهم ، الى أن بدأ جرى الريح الغربية ، فعمر بهم زورق ، وعصبت أعينهم ، وجرى بهم فى البحر برهة من الدهر . قال القوم : قدرنا انه جرى بنـــا ثلاثة أيام بلياليها ، حتى جىء بنا الى البر ، فأخرجنا وكتفنا الى خلف ، وتركنا بالساحل الى أن تضاحى النهار ، وطلعت الشمس، ونحن فى ضنك وسوء حال ، من شدة الأكتاف ، حتى ســـمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحنا بأجمعنا ، فأقبـــل القوم الينا ، فوجدونا بتلك الحـــال السيئة ، فحلونا من وثاقنـــا ، وسألونا فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا برابر ، فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا : لا ، فقــــال : أن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين . فقال زعيم القوم : واأسفى ! فسمى المكان الى اليوم « أسفى » وهو المرسى الذى فى أقصى المغرب ..) .

وقد أورد المغفور له الأمير شـــكيب أرســـلان هـــذهالقصة فى كتابه « الحلل السندسية » وعلق عليها قائلا : (قصة الأخوة المغرورين هذه قصة شهيرة صارت الآن معلومة عند أهل هـــذا العصر ، بعد أن بقيت مدة طويلة مدفونة فى كتاب الأدريسى ،

هذا الذي لم تتداوله الأيدي، وانما كان يطلع عليه بعض المستشرقين من علماء الأفرنج ، وبعض المطلعين من العرب على خزائن الكتب ، وقليلا ماهم ، وبقي الأمر كذلك الى سنة ١٨٩٢ م وكنت في باريز ، وكان عمري ٢٢ سنة ، فقرأت في جريدة النشرة الاسبوعية التي كان ينشرها الأستاذ العلامة ابراهيم الحوراني باسم جمعية الأميركيين في بيروت، مقالة مترجمة ، عن مجلة أميركية . لا أتذكر الآن اسمها ، يقول فيها بمناسبة كشف قارة أميركة : انه شائع من جملة الأخبار كون العرب وصلوا الى أميركة قبل كولمبوس ، وذلك بركوبهم البحر قاصدين الغرب من جهة الأندلس. ويقول : ليس عندنا نحن معلومات عن هذا الشأن تستند الى وثائق خطية، وانما هو كلام متواتر بين الناس. فكنا نود لو عرفنا ما عند العرب من هذا الموضوع . وأردف الأستاذ الحوراني ذلك بنداء الى علماء العرب أن أفتونا بما عندكم عن هذه المسألة) ومضى الأمير شكيب أرسلان في تعليقه ، وحكى قصة عثوره على النص العربي في كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » للأدريسي وتصفحه له لأول مرة ، ونسخه ما ورد عن قصة الأخوة المغررين بتمامه ، ونشره مقالا عن ذلك في جريدة ثمرات الفنون ببيروت . فكان — رحمه الله — بذلك أول من نبه الأذهان من العرب المحدثين الى ورود قصة الاخوة المغررين في « نزهة الآفاق » . واستنتج الأمير شكيب أن كريستوف كولمبوس لم يكن يجهل قصة المغررين

هذه ، فاستنتج أن وجود بر ، أو أرض كبيرة خلف بحر الظلمات — أو المحيط الأطلنطي — أمر لابد منه . ولهذا أقدم على رحلته التي كانت كشفا رائعا موفقا للعالم الجديد . وختم الأمير شكيب تعليقه على قصة الأخوة المغررين (بأن غاية ما يستفاد من العبرة فيها أن العرب حاولوا اختراق بحر المحيط ، والوصول الى البر الذي يقال له اليوم أميركا ..) .

ومنذ ذلك الاتجاه الذي أبداه الأمير شكيب فى هذه القضية والمفكرون العرب المحدثون والمعاصرون يؤيدون « شكيبا » فى وجهة نظره ، ويسيرون فى الخط الذي سار فيه ، ويقولون ان كشف كولمبوس لأمريكا كان على هدى من معلومات العرب السابقة ومغامرات بعضهم . وقد مال بعض الباحثين الأجانب الى احتضان هذا الرأى ، فالعالم الفرنسى جوتيه (١) يقرر أن تحقيق الدوران حول افريقية بوساطة فاسكودى جاما ، وكشف أمريكا على يد كولمبوس كان متعذرا بدون ارتقاء علم الجغرافية عند العرب، وان هذين الكشفين العظيمين تما بعقول العرب ومواردهم وأشخاصهم تحت امرة النصارى . ونرى الأب أنستاس مارى الكرملى يكتب بحثا ضافيا فى مجلة المقتطف سنة ١٩٤٥ عنوانه : (عرف العرب أميركة قبل أن يعرفها أبناء الغرب) ، فيستند الى رحلة الأخوة المغررين ويجعلها أساسا للمقال كله . ويميل الدكتور

---

(١) الاسلام والحضارة العربية : لمحمد كردعلى ص ٢١٢ .

زكى محمد حسن الى الاعتقاد بأن قصة هؤلاء الأخوة لم تكن مجهولة فى العصور الوسطى ، ولعل كولمبوس كان يعرفها ويعرف قصصا أخرى من أخبار من حاولوا ركوب المحيط الأطلسى وكشف غوامضه (١) . أما عباس محمود العقاد فيرى انه من الخرائط المرسومة والآراء النظرية التى نقلت عن العرب تلقى خريستوف كولمبوس صورته عن الكرة الأرضية (٢) . وهذا التلقى وهذه الصورة هى التى دفعت كولمبوس الى المخاطرة بهذه الرحلة الرائعة . ولكن العقاد يقف من قصة الأخوة المغررين موقفا آخر ، فقد خالف الأب أنستاس مارى الكرملى فى هذا الرأى ، كما خالفه فى أن الأب أنستاس أراد أن ينسب الفضل الأول فى معرفة كولمبوس بالعالم الجديد الى راهب من القرن السادس الميلادى اسمه برندان . ويشك عباس محمود العقاد فى القصتين معا : قصة الراهب برندان ، وقصة الاخوة المغررين ، ويعدها هى وما جرى مجراها أقاصيص ملفقة تحيط بها الشكوك (٣) .

وعلى حين يشك عباس محمود العقاد فى قصة الاخوة المغررين فان الأستاذ أحمد أمين يذهب مذهب الأمير شكيب أرسلان ، والأب أنستاس مارى الكرملى ، ويؤكد أن كولمبوس وقف على

---

(١) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى : لزكى محمد حسن ص ٥٠

(٢) أثر العرب فى الحضارة الاوربية ص ٤٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٥٣ .

رحلة هؤلاء الاخوة واستفاد مما ورد عنهم ، ويستنتج فى النهاية أن العرب (كانوا أسبق فى اكتشاف أميركا ، لولا سوء الظروف التى منعت من نجاحهم (١) .

ويبدو أن الأستاذ محمد بهجت الأثرى يميل الى تصديق هذه القصة وقد أشار اليها فى محاضرة ألقاها بالمجمع العلمى العراقى ، ونشرت فى عدد من أعداد مجلة المجمع . واذا كان لنا أن نستأنس برأى باحث عربى مختص بعلم الجغرافية فى هذه القضية فأن الدكتور محمد محمود الصياد يرى أن هذه الحكاية من باب القصص الذى لا يقوم لدينا الدليل القاطع على صحته (٢) وحسبنا أن ننقل هنا ما كتبه حول هذا الموضوع حيث قال : (ولا نريد أن نغالى فنقول ما قال به البعض بأن العرب قد اكتشفوا أمريكا بالفعل قبل أن يكتشفها كولومبوس بعدة قرون ، فقصة المغررين الذين تحدث عنهم المسعودى فى مروج الذهب، فذكر انهم خاطروا وركبوا بحر الظلمات «ومن نجا منهم ومن تلف وما شاهدوا منه وما رأوا » ثم وصف الأدريسى رحلتهم فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » هى كلها من باب القصص الذى لا يقوم لدينا الدليل القاطع على صحته . ولعل

(١) ظهر الاسلام جـ ٣ ص ٢٩٤ .

(٢) أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوربية ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

بعض العرب قد فكر فعلا فى ارتياد بحر الظلمات ، فلم يصلوا الى غاية) .

وقد هدانا الدكتور محمد محمود الصياد الى مصدر عربى آخر أقدم من الأدريسى حول جماعة من العرب فى الأندلس ركبوا بحر الظلمات — أو المحيط الأطلسى ، فغرروا وخاطروا بأنفسهم متجهين الى الغرب . وهذا المصدر الأقدم من الأدريسى هو المسعودى المؤرخ صاحب « مروج الذهب » والمتوفى سنة ٣٤٦ هـ . ومن الغريب أن الأمير شكيب أرسلان تشبث بنص الادريسى عن الاخوة المغررين الذى اهتدى اليه وهو فى باريس سنة ١٨٩٢ ، ولم بتشبث بحكاية المسعودى عن المغررين ، مع أن كتاب المسعودى كان أكثر تداولا من كتاب نزهة المشتاق . ويظهر أن الأمير شكيب فرح أشد الفرح حينما هدته مصادفة سعيدة فى المكتبة العامة بباريس الى نسخة من كتاب « نزهة المشتاق » ، فوقع فيه بعد لحظات على النص الذى يريد ..

وقد سار الباحث المغربى عبد الله بن العباس الجرارى فى هذا الدرب المؤيد لقضية معرفة العرب لأمريكا قبل كولمبوس ، وأيد ذلك فى الفصل الذى كتبه بعنوان : « اكتشاف بعض أجزاء الأرض المعروف بالعالم الجديد » . وقد عزز وجهة نظره هذه بما كتبه الدكتور جيفريس الأستاذ بجامعة « ويتواتر ستراند » الأمريكية من أن العرب هم الذين اكتشفوا أمريكا قبل كريستوف

كولومب بنحو من ثلاثة قرون أو أربعة . ويرى هـذا الباحث الأمريكى أن المزروعات الأفريقيـة دخلت الى أمريـكا على يد العرب ..

ولم يفت باحثا مؤرخا مثل الدكتور «فيليب حتى»، أن يشير الى قصة الأخوة المغررين التى أوردها الأدريسى ، ولكنه لم يجعل منها وحيا لكولومبوس هداه الى كشف العالم الجديد ،بل جعلها (من الأخبار التى تنعكس عن الحركة البحرية الناشطة فى المحيط الأطلسى « بحر الظلمات » (١) .

وقد جمع المستشرق كراتشكوفسكى بين الخبر الذى رواه المسعودى عن فتيان قرطبة وأحداثهم الذين ركبوا المحيط الأطلسى فى مغامرة بحرية عادوا منها سالمين بغنائم واسعة ، وبين قصـة المغررين التى أوردها الادريسى فى نزهة المشتاق ، واستنتج من الأخيرة أن نقاطا عديدة منها تدخل فى محيط الأدب الشـعبى : الفولكلور العالمى للقرون الوسطى (٢) .

وممن ذكر قصة الأخوة المغررين المرحوم أحمد زكى باشا فى مقـال له بمجلة المقتطف ، والمرحوم جرجى زيدان ، والدكتور شوقى ضيف فى كتابه « الرحلات » . وقد يكون تناولها باحثون آخرون معاصرون لم نقف عليهم .

(١) تاريخ العرب العام . فيليب حتى ص ٦٣٠ .
(٢) تاريخ الادب الجغرافى العربى ص ١٣٧ .

بقى أن نعرف سر تســـــمية هؤلاء الأخــوة بالمغررين ، أو المغرورين . والمغرر هو الذى يغرر بنفســه ويركبهـــا المخاطر والأهوال . ولعلها تسمية جاءت من النص القديم عند المسعودى. أما المغرورون فمعناها الذين اغتروا بأنفسهم وركبوا مالا يستطاع ركوبه ، واللفظان من جذر واحد . ويميل أكثر الكتاب اليــوم الى اســتعمال لفظة « المغررين » ، وان كان القسم المطبوع فى أوربا من « نزهة المشتاق » يسميهم المغرورين .

ولا معنى لأن تضبط كلمة « المغررين » بشــدة وفتحة على الراء الأولى ، كما جاء عنــد كراتشكوفسكى ، والأجــود أن تضبط الراء الأولى بشدة وكسرة ـــ على وزن مدرس ـــ لأن الفعل غرر الرجل بنفسه أى أركبها الخطر . ونص المســعودى نفسه يؤكد لنا هذا الضبط حيث يقول : أخبار من غرر وخاطر بنفسه . ويميل المستشرق المشهور « آدم ميتز » الى تســميتهم بالمغربين أى المتجهين غربا، ولا أدرى من أين أخذ هذه التسمية(١)، ولا فى أى مصدر وجدها .

---

(١) انظر الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع : لآدم ميتز ٠ ج ٢ ص ٣٦٧

أوربا والأندلس وإفريقية عند الإدريسي

لم يتردد أحـد من الباحثين الذين تحدثوا عن الأدريسي فى الحديث عن القيمة العلمية للمعلومات التى قدمها فى كتابه «نزهة المشتاق» عن أوربة والأندلس . واذا كانت معلوماته عن الأندلس ومدنهـا وأصقاعهـا تتسم بالدقة التى ترجع الى مشـاهداته الشخصية ، وما كان يتمتع به من ملاحظة دقيقة ، فأن المعلومات التي دونهـا عن أكثر بلدان أوربة ـــ وهى المعلومات التى قام بجمعها الرواد والرسـل الذين أوفدهم الملك روجر الثـانى ـــ تمتـاز بالدقة فى أكثرها ، وتتمتع بدرجة عالية من الثقـة التى أصـبحت حديث أكثر المستشرقين ومجـال تقديرهم . ويرد المستشرق الايطالى ألدوميلى هذه الدقة الى اقامة الأدريسى فى بلد مسيحى كصقلية ، والى نشاطه فى صقلية . ويقول ميلى فى هذا الصدد : (وبالنظر الى أقامته فى بلد مسيحى ، ونشاطه فى

صقلية ، كانت بياناته عن البلدان المسيحية أعظم دقة وأوسع مدى من كل الجغرافيين الآخرين من العـرب) . والحق أن الظروف التى قضت على الأدريسى أن يعيش فى صـقلية قريبا من الملك روجر المشجع للعلماء قد هيأت له أنه يوسع مجـال معارفه عن أوربا بهذه البعثات التى كان يذهب فيهـا الرسل والمبعوثون فيجمعون البيانات والمعلومات ، ويقدمونها الى الادريسى الذى كان بدوره يدقق فى اختيارها على ضـوء الاتفاق بين الروايات أو الاختلاف بينها .

ويؤكد لنا كراتشكوفسكى فى مستهل دراسته الجيدة الواعية عن الأدريسى أنه ليس هناك مؤلف حفظ لنا معطيات وافرة ذات قيمة كبرى عن بـلاد الغرب كما فعـل الأدريسى . ويتعرض كراتشكوفسكى مرة أخرى لوصف الادريسى لأوربا الغربية : بما فيها من فرنسا وألمانيا وسكوتلاندة وايرلندة وسواحل بحر الشمال ، فيصفه بأنه وصف ينم عن المقدرة والمهارة التى اقتضتها الظروف العلمية لذلك العهـد . ويقرر المستشرق النمسـوى توماشك أن وصف الأدريسى لبلاد البلطيق أكثر دقة من وصفه لألمانيا وبولندة وروسيا ، كما يصرح بأن رومانيا وشـبه جزيرة البلقان قد ظفرتا بتفصيل كثير ومعلومات غزيرة ، ويرد ذلك الى الحمـلات الصليبية التى كانت قد بدأت منـذ عام ١٠٦٤ م ، فوسعت ميدان التعرف الى هـذه البلاد ، كما يرده الى نمو

العلاقات التجارية بين الغرب الفرنجى الرومانى ، والشرق الأغريقى الصقلبى .

ويظهر أن الذى فعله الأدريسى فى وصف شبه جزيرة البلقان لا يقل عما فعله فى بقية البلاد الأوربية التى تحدث عنها ، بل يعد هذا الوصف نموذجا للمنهج الذى اتبعه . فهو يتحدث عن الأحوال التجارية ، والعلاقات التجارية بين هذه البلاد ، كما يتحدث عن وسائل المواصلات التى تعد طرقا رئيسية هامة للتجارة .

ولم يفت المستشرق الاسبانى بالنثيا أن يشير فى كتابه القيم الى القيمة العلمية للمعلومات الصحيحة ، والمادة الوافرة التى قدمها الأدريسى فى نزهة المشتاق عن البلاد الأوربية التى تسكنها شعوب تعتنق الديانة المسيحية .

ولاشك أن الموقع الفريد الذى تتمتع به جزيرة صقلية فى البحر المتوسط ـــ الذى يسمى خطأ البحر الأبيض المتوسط ـــ كان من أهم العوامل التى ساعدت الأدريسى على تحصيل معلوماته الدقيقة عن أوربا وعن البلاد التى وصفها فيها . وقد أبرز هذه الحقيقة الأستاذ الباحث الهندى نفيس أحمد حيث قال : (وحينما كان الأدريسى يعالج اللمسات الأخيرة فى اتمام مؤلفه ، كان قد حظى بميزات كبرى بتيحها وضع صقلية فى مركز البحر المتوسط تقريبا ، ووقوعها عند ملتقى السفن والملاحين القادمين من المياه الشمالية ، ومن المحيط الأطلنطى ومن البحر المتوسط) .

فوضع جزيرة صقلية فى البحر المتوسط من ناحية ، ووضعها السياسى الجديد من حيث كونها تابعة لأسرة نورماندية فاتحة من ناحية أخرى ، واهتمامات الملك روجر الثـانى من ناحية ثالثة ، وذكاء الأدريسى نفسه وشـدة تنبهه للتدقيق فى المعلومات التى يحملها اليه الرسل والرواد من ناحية رابعة ، كل ذلك قد أدى الى الدقة فى وصف الأدريسى لأقاليم أوربا ، تلك الدقة التى كانت ولاتزال موضع اعجاب وتقدير من عدد غـير قليل من الباحثين والمستشرقين .

ولم يفت المستشرق الروسى « مينورسـكى » الذى ولد فى روسـيا سنة ١٨٧٧ م وعاش فى انجلتـرة ، والذى حرر مادة (روس) . فى دائرة المعارف الاسلامية .. لم يفته أن يشير الى جهد الأدريسى فى أصالة المعلومات التى زودنا بها فى كتابه نزهة المشتاق . ويقول مينورسكى فى هذا الصدد : (والادريسى هو الكاتب الوحيـد الذى يمدنا بمعلومات أصيلة عن الروس بعد القرن العاشر ــ الميلادى ــ فهو يتناولهم فى كلامه عن الأقليم السادس ، القسم الخامس « نهر الروس ، المدن التى على نهـر الدنيبر » ، وعن الأقليم السابع ، القسم الرابع والقسم الخامس « منابع الدنيستر ، الروسيا ، وقومانيا أى أرض القومان ») .

وحين نبهنا الباحثون الأجانب المنصفون الى القيمة العـالية لمعلومات الأدريسى عن أوربا رأينا الكتاب العرب يتابعون هؤلاء

الغربيين فى تقديرهم . فالدكتور زكى محمد حسن يقول فى هذا الشأن : (.. والواقع انه — أى الادريسى — بهـذه البيانات امتـــاز على سائر الجغرافيين المسلمين ، فأن من سبقه منهم لم يستطع الكتابة على أوربا فى شىء من الدقة ، ولم يظفر بمشاهدات أولئك الرواد الذين أوفدهم الملك حتى الى أقصى الأطراف مثل اسكندناوة . أما الذين خلفوه فقد عمد معظمهم الى نقل ماكتبه هو فى هذا الصدد ..) (١) .

ويشـــير الدكتور شـــوقى ضيف الى هذه الحقيقة قائلا : (ولا يقف الأدريسى بكتابه عند وصف العالم الاســـلامى ، بل يضم اليه وصفا دقيقا للعالم المسيحى فى أوربة . مفيدا من الرحالة الذين وضعهم روجر تحت امرته ، وقد أوفدهم الى بلدان أوربة المختلفة ، ونقلوا اليه كثيرا من المعلومات عن فرنســـا وايطاليا وألمانيا وأواسط أوربة وشرقها ، (٢) . ويسمى الادريسى انجلترة باسم « انكرطرة » ، وهو طبعا من تحريفات الترجمة والتعريب ، كما يسمى الأنجليز باسم « الأنكلسية » ، وهو تحريف آخر . وحين يتحدث عن البحر الذى يكتنف انجلترة من جنوبها — وهو جزء من المحيط — يقول : (وأهم الملاحين فى هـــذا البحر هم

---

(١) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى : د . زكى محمد حسن ص ٦٥ .

(٢) الرحلات : لشوقى ضيف ص ٢٠ .

المعروفون باسم الأنكلسية ، أى سكان انكرطرة ، وهى جزيرة عظيمة بها مدن كبيرة ..) .

أما الأستاذ محمد بهجت الأثرى فيتناول هذه القضية بقوله: (ويعـد الأدريسى أهم من عرف أوربة الغربية والشمالية من الجغرافيين الاسلاميين) .

ولا يقل وصف الأدريسى للأندلس دقة وضبطا عن وصفه للبلاد الأوربية الأخرى . واذا كانت أوربا بعيدة عن متناوله الا عن طريق المبعوثين والرسل الذين أوفدهم بأذن روجر الثانى ، فأن أسبانيا كانت فى طاقته ، وقد زارها حينما كان يتلقى العلم بقرطبة ، ولما كان فيه طبع الرحالة الأصيل فقد انتهز الفرصة وزار أكثر بلادها ومدنها ، وتحدث عنها حديث البصير الخبير . وكثيرا ما تحدث عن هذه المعاينة بقوله : وقد رأيناه عيانا ، أو شبيهه من العبارات الدالة على الرؤية العينية . وفى فصل خاص بالمعاينة والمشاهدة عند الأدريسى ، وفصل آخر عن منهج الأدريسى فى وصف البلاد من كتابنا هذا تتضح لنا دقة الأدريسى فى وصف الأندلس على وجه الخصوص .

ومن حسن الحظ أن مؤرخا دقيقا كالدكتور حسين مؤنس قد تفطن الى هذه المعرفة الدقيقة عند الادريسى فى وصف الأندلس فقال من دراسته عنه : (وصف الادريسى للاندلس فى معظم

نواحيه يدل على أنه يعرف ما يتكلم عنه ، فبينا نراه فى وصف مصر — مثلا — يعتمد فى الغالب على ابن خرداذبة وابن حوقل دون أن يراجع ما ينقله أو يحققه ، نجده فى الأندلس ينقل عن هذين وغيرهما ممن ذكرنا ، ولكنه يراجع ويدقق ويقيس ، بحيث لا نكاد نستدرك عليه خطأ يستحق الذكر فى أوضاع المدن والأعلام الجغرافية أو خصائصها . وعرضه لهذه الجغرافية اشبه برحلة ينتقل فيها الانسان من موضع الى موضع ، ومن ناحية الى ناحية ..) .

واذا ما نتقلنا من الأندلس وأوربة الى أفريقية . رأينا الادريسى يحظى بين الباحثين بوصف معلوماته هنا بالدقة التى عرف بها هناك . وعلى الرغم من أنه كان ينقل عن بطليموس فى هذا الميدان فأنه لم يكن مجرد ناقل مقلد ، وانما كان ينقل عن معرفة ووعى . وقد أشار المستشرق النمسوى مجيك mzik الى هذا بقوله : (فبعض مؤرخى الجغرافيا يرى أن الادريسى فى وصفه لافريقية لم يترسم خطا بطليموس دون وعى ، فوصفه لمجرى النيل الغربى أى نهر النيجر قد وكدت صحته الاكتشافات الجغرافية فى القرن التاسع عشر ، وهو على معرفة جيدة بالتجارة مع داخل أفريقية ، وقد أورد أسماء المراكز التى ازدهرت فيها الحضارة الاسلامية فى ذلك الوقت مثل غانا ، وسلا ، وتكرور) .

وبلغ من دقة الأدريسى فى وصفه لأفريقية والنيل أن مؤرخنا

ابن خلدون أخذ منه أكثر أوصافه وزاد عليها . وما أقرب ما قاله الأدريسى فى هذا الصدد مما قاله ابن خلدون حيث يقول : (وأما الجزء الأول من هذا الأقليم ففيه مصب النيل الآتى من مبدئه عند جبل القمر كما ذكرناه . ويسمى نيل السودان . ويذهب الى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أوليك . وعلى هذا النيل مدينة سلا، وتكرور ، وغانة. وكلها لهذا العهد فى مملكة مالى من أمم السودان ، والى بلادهم تسافر تجار المغرب الأقصى . وبالقرب منها من شماليها بلاد لمتونة ، وسائر طوائف الملثمين ، ومفاوز يجولون فيها . وفى جنوبى هذا النيل قوم من السودان يقال لهم « لملم » وهم كفار ، ويكتوون فى وجوههم وأصداغهم ، وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم الى الغرب ، وكلهم عامة رقيقهم) .

والى معلومات الأدريسى الدقيقة عن النيجر ، وأفريقية ، ومنابع النيل يشير « كامبل » فى كتابه « الجغرافيا فى العصور الوسطى » فهو يقول : (وقد أمدنا الأدريسى بعد ذلك فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى بمعلومات عن النيجر فى الجزء الواقع أعلى تمبكتو ، وعن أقليم منابع النيل ومناطق كبيرة من السودان فى دقة لا ينازع فيها ، وذلك فى ثنايا جغرافيته (نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق) ، وان جدة معلومات الادريسى عن افريقية وقيمتها الحقيقية لتثيران اعجاب الجغرافيين المحدثين) .

وقد سجل الباحث الهندى « نفيس أحمد » هذا النص فى كتابه القيم الذى عنوانه (جهود المسلمين فى الجغرافيا). كما أن المرحوم عباس محمود العقاد لم تفته الأشارة الى الأدريسى ، وسبقه فى ميدان الحديث عن منابع النيل حديثا صحيحا ، فقال فى هذا الشأن : (ولا يعرف أن أحدا سبق الأدريسى الى بيان الحقيقة عن منابع النيل العليا كما حفظت فى الخرائط التى بقيت فى بعض المتاحف الأوربية ، ومنها خريطة محفوظة بمتحف سان مرتين الفرنسى ، ترسم النيل آتيا من بحيرات الى جنوب خط الاستواء، بعد أن تخبط الجغرافيون فى وصف منابعه وتعليل فيضانه منذ أيام هيرودوت الملقب بأبى التاريخ) (١) .

أما شرق أفريقية فقد وصفه الأدريسى وصفا دقيقا ولو لم يرحل اليه ، ولكنه كان هنا ناقلا دقيقا ، ويشير الدكتور جمال زكريا قاسم الى هذا بقوله من بحث عنوانه (دور العرب فى كشف أفريقيا) نشر بمجلة عالم الفكر التى تصدر بالكويت ، العدد الرابع سنة ١٩٧١ : (ومما يستلفت النظر أن الأدريسى لم يرحل الى شرق أفريقيا كما فعل المسعودى ، ولكنه استمع كثيرا ، وقرأ أكثر ، فأتى بدقائق مفصلة عن هذا الأقليم خاصة) . وكذلك غرب أفريقية ـــ ولاسيما غانة ـــ فقد وصف الأدريسى ما كان عليه

(١) أثر العرب فى الحضارة الاوربية : عباس محمود العقاد . ص ٤٦ .

ملوك غانة من الثراء والعلاقات التجارية بينهم وبين المغرب الأقصى (١) .

ومن الباحثين الغربيين الذين أنصفوا الأدريسى فى مجال بياناته الدقيقة عن أفريقية الكاتب « بازل دافيدسون » فى كتابه « أفريقية تحت أضواء جديدة » الذى نشرت ترجمته العربية ببيروت سنة ١٩٦١ .

---

(١) مجلة عالم الفكر الكويتية عدد مارس سنة ١٩٧١ وقد نقل الكاتب هذا عن الدكتور عبد الرحمن زكى فى دراسته : (المراجع العربية للتاريخ الاسلامى فى غرب افريقيا) .

جوانب متعددة من الإدريسي

مما يلفت النظر عند الشريف الأدريسى أنه كان رجلا متعدد جوانب المعرفة ، موزع ألوان الثقافة ، فلم يقتصر على فرع من المعرفة دون فرع، ولم يحبس نفسه فى دائرة علم الجغرافية والفلك لا يتعداها الى غيرها ، ولكنه خاض ميادين متنوعة بالأضافة الى علم الجغرافية والخرائط الذى برع فيه ، واشتهر به حتى صار من أعاظم الجغرافيين العرب .

ولقد اهتم الباحثون والمؤرخون بالأدريسى جغرافيا ومصور خرائط، وتحدثت عنه فى هذا الكتاب كل المؤلفات التى تتناول تقدم العرب فى الجغرافية والعلم . ومن هنا جاءت سيرته فى كتب العلوم عند العرب أكثر مما جاءت فى كتب التاريخ الأدبى . ومن هنا أيضا كان اهتمام جرجى زيدان به فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » لأنه يؤرخ فى كتابه للعلوم الدخيلة كالطب والفلسفة

والطبيعيات وعلم الحيوان والنبات والفنون الجميلة والجغرافيه وما اليها بالاضافة الى التأريخ للشعر والأدب والعلوم الاسلامية وعلوم اللغة . ولقد كانت ترجمة جرجي زيدان للشريف الأدريسى فى خلال الفصل الذى عقده فى كتابه عن الجغرافية والرحلات عند العرب فى العصر العباسي الرابع ، وكان من الذين ترجم لهم زيدان فى هذا الفصل : أبو عبيد البكرى ، والمازنى الغرناطى ، وابن جبير الرحالة ، والسائح الهروى ، وابن عبد العزيز ، وياقوت الحموى، وعبد اللطيف البغدادى . ومن هنا أيضا نجد اشارات لا بأس بها الى الشريف الأدريسى فى كتب « الرحلات » لشوقى ضيف ، و « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » لزكى محمد حسن ، و « العلم عند العرب » لألدوميلى الايطالى ، و « العلوم عند العرب » لقدرى حافظ طوقان ، و « الرواد » لفؤاد صروف ، و « رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى » لنقولا زيادة ، و « تقدم العرب فى العلوم والصناعات » لعبد الله الجرارى ، و « جهود المسلمين فى الجغرافية » لنفيس أحمد الهندى ، و « العرب والملاحة فى المحيط الهندى » لجورج فضلو حوارنى ، و « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » لأغناطيوس كراتشكوفسكى.

ويبدو أن شهرة الأدريسى فى علم الجغرافية والخرائط قد طغت على مكانته فى نواح أخرى من الطب ، وعلم النبات ، والصيدلة، والشعر. مما جعل المستشرق الروسى كراتشكوفسكى

يحكم على الرجل بأنه (كان الى حد ما مؤلفا جامعا — أى موسوعيا — بل وعرفت له بعض الأشعار منذ وقت طويل) .

وقد يكون من الطريف هنا أن نذكر بعض الأشعار التى رواها صلاح الدين الصفدى للشريف الادريسى وهو يترجم لسيرته فى باب المحمدين من الجزء الأول من كتابه . وهى أشعار تدل على ميل الادريسى الى الحكمة ، والى وصف آلام الغربة، والشكوى من ضياعه فى خضم الاغتراب مع فقدان الأنصاف والتقدير ، فمن شعره فى الغربة قوله :

ليت شعرى ! أين قبرى ضاع فى الغربة عمرى
لم أدع للعين ما تشتاق فى بر ، وبحر
وخبرت الناس والأر ض لدى خير وشر
لم أجد جارا ولادا را كما فى طى صدرى
فكأنى لم أسر الا بميت أو بقفر ...

وله أبيات أخرى فى الاغتراب يقول فيها :

ان عيبا على المشارق أن أر جع عنها الى ذيول المغارب
وعجيب يضيع فيها غريب بعد ما جاء فكره بالغرايب
ويقاسى الظما خلال أناس قسموا بينهم هدايا السحايب

ومن حكمه قوله :

دعني أجل ما بدت لي ... سـفينة أو مطيه

لا بـد يقطع سيري ... أمنيـة ، أو منيه

وقوله :

ومن قبـل أن أمشي على قدم المنى

سعى قدمي في المدح سعيا على الرأس

ومن شعره الوصفي قوله في صفة ليل :

وليـل كصـدر أخـي غمـة

قطعنـاه حتى بلغنـا النجـاح

وبدر السـماء بدا في النجـوم

كما لاح في الناس بدر السماح ..

ولم يملك الأديب المؤرخ الذواقة صلاح الدين الصفدي صاحب «الوافي» نفسه من أن يعلق على هذه الأبيات التي رواها بقوله : (قلت : شعر جيد) . وقد كان كراتشكوفسكي يشير الى تلك الأشعار — دون رواية لها — وهو يقول في حديثه عن الأدريسي : (بل وعرفت له بعض الأشعار) .

ويعرف اهتمام الادريسى بعلم النبات ومشاركته فيه من تأليفه لكتاب « الجامع لصفات أشتات النبات » . ومنه نسخة مصورة فى معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية ، وقد ضمنه ــ كما فى تعريف الفهرس ــ ذكر أنواع المفردات من الأشجار والثمار والحشائش والازهار والحيوانات والمعادن ، وتفسير معجم أسمائها بالسريانية واليونانية والفارسية واللاطينية والبربرية . وقد أشار فى مقدمته الى أنه قد رتب جميع أسماء النبات التى ذكرها على حروف أبجد هوز ... وليس عندنا ما يدل على زمان تأليف هذا الكتاب ومكانه . فقد يكون ألفه فى صقلية ، وقد يكون ألفه بعد مغادرته لها عائدا الى وطنه « سبتة » . ويؤكد كراتشكوفسكى أن الأدريسى مدين بمعارفه فى الصيدلة والنبات والمعرفة بأسمائها الأجنبية الى اقامته فى صقلية حيث كان التراث اليونانى البيزنطى لايزال على قيد الحياة . ولم يكن كراتشكوفسكى مبتكرا لهذا الاستنباط ، ولكنه نقله عن « الدومبيلى » المستشرق الايطالى الذى يستنتج أن الادريسى (يبرهن على دراية عميقة بالاصطلاحات البيزنطية « الاغريقية » التى يميزها تماما عن الاصطلاحات الاغريقية القديمة «اليونانية» . وبديهى أن هذه الدقائق ذات علاقة بأقامة الأدريسى الطويلة فى

صقلية ، حيث كانت الاغريقية لا تزال لغة الكلام الدارج عند قسم من السكان) (١) .

وينسب المستشرق « الدوميبلى » الى الادريسى كتابا فى الصيدلة ، ويقول عنه انه مبدوء بمقدمة عامة تتسم بطابع البحث فى النباتات ، وقد كشف عنه أخيرا فى مخطوط بمكتبة فى استنبول . ولكنه لم يشتمل الا على النصف الأول من الكتاب ، ويذكر ميلى ان العالم مكس مايرهوف قد ترجم بعض مقتبسات منه ، وقدم فكرة عامة عن الكتاب كله فى دراسة لعلم النبات العام والصيدلة عند الادريسى ، والحق اننا لا ندرى علاقة هذا الكتاب بكتاب « الجامع لصفات أشتات النبات » ، فقد يكونان شيئا واحدا . ولعل من باحثينا الأفاضل من يكشف لنا سر هذه المسألة .

ولا يعد الادريسى متخصصا فى الطب وان كان فيه مقلدا خطوات من سبقوه . ويشير كراتشكوفسكى الى هذه الناحية عند الشريف الادريسى . ومن الطريف ان ابن أبى أصيبعة صاحب كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » قد ذكر الشريف الأدريسى فى كتابه على أنه من الأطباء الذين شملهم كتابه ، وأسماه « الشريف محمد بن محمد الحسنى » ، فلم يذكره باسم « الشريف الأدريسى » المشهور به ، وذكر له كتابا عنوانه

---

(١) العلم عند العرب : لألدو ميلى ص ٣٩٠ من الترجمة العربية .

« الأدوية المفردة » (١) ، ووصف الرجل بأنه كان فاضلا عالما بقوى الأدوية المفردة ومنافعها ومنابتها وأعيانها . ولم يذكر له من الكتب غير هذا الكتاب ، ولم يشر مطلقا الى مكانه في علم الجغرافية ولا الى كتابه « نزهة المشتاق » . ولعله اختار له من مصنفاته كتابا يتصل بالطب الذى هو موضوع كتاب « عيون الأنباء » ، فلاءم بين المؤلفات وبين موضوع كتابه في طبقات الأطباء ، كما هو شأنه فى أغلب التراجم التى دونها للأطباء ، فلم يختر من مؤلفاتهم غالبا الا ما يتصل بالطب . ويظهر ان كتاب « الأدوية المفردة » من المخطوطات التى أضاعها الزمان حتى اليوم . ولعل نسخة خطية منه ترقد فى خزانة مغلقة أو تحت قبو مظلم ولكن الحجاب لم يرفع عنها بعد . وقد ذكر المستشرق « بالنثيا » كتاب (٢) « الأدوية المفردة » للشريف الادريسى ، وقال عنه ان ابن سعيد ذكره ، وأفاد منه ابن البيطار صاحب « المفردات » .

(١) عيون الانباء لابن ابى اصيبعة ج ٢ ص ٥٢ .
(٢) تاريخ الفكر الاندلسي ص ٣١٣ .

الادريسى بين التجاهل والإنصاف

على الرغم من المكانة العلمية العظيمة فى الجغرافية التى يتمتع بها الشريف الأدريسى بين الأوربيين ، وعلى الرغم من الشهرة التى حظى بها فى أوساط المستشرقين والباحثين الأجانب ، فأنه لم يأخذ بين مؤرخى العرب وباحثيهم مكانه الذى يستحقه ، ولم يتمتع بينهم بالشهرة التى يستأهلها . فان كثيرا من المصادر العربية التى جاءت بعد القرن السادس الهجرى — أى القرن الذى عاش ومات فيه — لم تشر اليه ولم تتحدث عنه ، ولم تترجم له ، وكأن الرجل لم يملأ عين الزمان بتلك المنجزات الجغرافية العظيمة التى أتمها . ونتج من هذا الاهمال أن معلوماتنا عن الادريسى قليلة جدا واننا نتعب أنفسنا كثيرا حين نحاول البحث عن ترجمة له فى المصادر القديمة .

ومن أعجب مالاحظناه على اغفال اسم الادريسى ان مؤرخا جليلا كالمقريزى صاحب « الخطط » المشهورة وغيرها من المؤلفات

الجليلة لم يذكر اسمه وهو يشير الى كتابه « نزهة المشتاق » فى الفصل الذى عنوانه « ذكر مخرج النيل وانبعاثه » ، فلم يذكر اسم الادريسى مطلقا ، بل قال : (وقال فى كتابه نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق) ، ولا يعود الضمير فى : قال على مذكور قبل هذا ولكنه حذف اسم مؤلف النزهة ، اما تعمدا للاغفال من جهة ، أو اتكالا على أن اسم صاحب النزهة معروف مشهور من جهة أخرى . ولا نسىء الظن بالمقريزى الى حد اتهامه باهمال اسم الادريسى وتعمد اسقاطه . ولكنها على كل حال ظاهرة تلفت النظر.

ولم ينفرد المقريزى وحده بأسقاط اسم الشريف الأدريسى فى معرض الحديث عن كتابه نزهة المشتاق ، فأننا نجد مؤرخا جليلا آخر هو الأمام السيوطى صاحب « حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة » وغيره من المصنفات العديدة النافعة يسقط اسم الشريف الأدريسى فى خلال الفصل الذى عنوانه « أثر متصل الاسناد فى أمر النيل » ، فيقول : (وذكر صاحب كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) ، ويضن السيوطى هنا بذكر اسم الادريسى أو لقبه كماضن من قبل المقريزى عليه بالذكر .

ولكننا من ناحية أخرى نجد مؤرخنا الكبير ابن خلدون — فى خلال الكلام عن « تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا » — يذكر كتاب نزهة المشتاق ثم يصفه بأنه الكتاب (الذى ألفه العلوى

الأدريسي الحمودى (١) لملك صقلية من الأفرنج ، وهو رجار بن رجار عند ماكان نازلا عليه بصقلية ، بعد خروج صقلية من امارة مالقة ، وكان تأليفه للكتاب فى منتصف المائة السادسة) . وابن خلدون منصف للرجل بعض الاصناف ، فلم يضن عليه بذكر اسمه ، ولا بحديث قصير عنه يعرف القارىء به ..

ويشير مؤرخنا ابن خلدون الى الشريف الأدريسى مرة أخرى وهو يتحدث عن البحار والأنهار فيقول : (وقد ذكر ذلك كله بطليموس فى كتابه ، والشريف فى كتابه رجار) . ثم يذكره مرة ثالثة فى معرض حديثه عن « الأقليم الأول » فيقول : (وقال صاحب كتاب رجار) وان كان لم يذكر الاسم اكتفاء بأنه ذكره قبل ذلك ، وأصبح كتاب رجار معروفا بأنه كتاب «نزهة المشتاق» للأدريسى .

ولم يدع المستشرق كراتشكوفسكى ظاهرة اهتمام ابن خلدون بالأدريسى وكتابه « نزهة المشتاق » دون أن يشير اليها ، فذكر أن المصدرين الأساسيين لابن خلدون فى كلامه عن الجغرافية هما بطليموس والأدريسى ، وقد صرح ابن خلدون بذلك فى خلال ذلك الفصل .

---

(١) ذكر الدكتور على عبد الواحد وافى فى تحقيقه لمقدمة ابن خلدون لفظ الحمودى هكذا : المحمودى بزيادة ميم قبل الحاء ، وصوابه الحمودي نسبة الى بنى حمود الادارسة الذين منهم الشريف الادريسى .

والحق أن الأدريسى لقى بعض الانصاف والتقدير والاهتمام عند مؤرخ أديب شاعر من رجال القرن الثامن الهجرى هو صلاح الدين الصفدى الذى أفرد الأدريسى بترجمة لا بأس بها فى كتابه « الوافى بالوفيات » حـ ١ ص ١٦٤ جمع فيها أمثلة من شعره. كما أنه تحدث عنه مرة أخرى وعن كتابه نزهة المشتاق وعن الكرة الأرضية التى صنعها، فى خلال ترجمته لروجار الثانى ملك صقلية فى حرف الراء.

وأعجب ما صادفنا فى اغفال الأدريسى هو ما وجدناه فى كتاب ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء فقد ذكره على انه من الأطباء لا من المشتغلين بعلم الجغرافية وذكر له كتابا فى الأدوية (١) المفردة، ولم يذكره باسمه المشهور المعروف لدينا حتى نهتدى اليه بأيسر نظر، بل ذكره باسم (الشريف محمد بن محمد الحسنى)، وذكر انه يلقب بلقب « العالى بالله ».

وقد لفتت هذه الظاهرة من اغفال الادريسى واهماله أنظار كثرة من الباحثين. وهذا كراتشكوفسكى يصرح فى دهشة أن مؤلفات الشريف الأدريسى ظلت مغمورة الذكر فى القرون التالية (٢).

وعلى الرغم من ظاهرة اغفال الأدريسى وتجاهله عند المؤلفين

---

(١) عيون الانباء، فى طبقات الأطباء، جـ ٢ ص ٥٢.
(٢) تاريخ الادب الجغرافى العربى جـ ١ ص ٢٩١.

العرب القدماء فقد أفاد منه ورجع اليه وأخذ عنه بعض المصنفين. ولكنا لاندرى سببا لأغفال ياقوت الحموى له مع اشتراكهما فى ميدان جغرافي واحد . فياقوت مؤلف « معجم البلدان » وهو معجم جغرافى جليل ، وكان اسم الأدريسى وآثاره فى علم الجغرافية مظنة الورود فيه ، ولكن ياقوتا تركه وكأنه لا يعلم عنه شيئا على الأطلاق .

وقد أثار هذا الاهمال العجيب للادريسى محاولات لمعرفة سبب هذا الموقف الغريب . حتى لقد بلغ الأمر بالمستشرق كاترمير الفرنسى أن يصرح بأن المسلمين لم يكونوا راضين عن اتصال الأدريسى بملك نصرانى مثل روجر الثانى ، ودخوله فى خدمته . وقد نشر هذا الرأى فى بحث قيم لكاترمير (١) فى مجلة العلماء مجلد سنة ١٨٤٣ م ، ونقله الدكتور حسين مؤنس فى دراسته عن الشريف .

ويذكر المستشرق كراتشكوفسكى سببا آخر لأغفال أمر الأدريسى عند الباحثين العرب ، فيقرر أنه ربما كان السبب فى هذا الاهمال والتجاهل ، الموقف السلبى الذى وقفه ممثلو المدرسة الرياضية من منهج الأدريسى . على أن كراتشكوفسكى لم يفته الأشارة الى السبب الأول الذى ذكره كاترمير ، وهو أن

---

(١) هو المستشرق الفرنسى Quatre Mere المتوفى سنة ١٨٥٢ وهو تلميذ « دى ساسي » ، وقد أصبح امام الاستشراق بعده .

الأدريسى كان يعمل ببلاط ملك مسيحى ، بل رفع اليه مؤلفا يمتدحه فى افتتاحيته . وقد يكون فى هذا الموقف حمل للدوائر السنية على أن تعد الرجل مارقا (١) . وكذلك الدكتور زكى محمد حسن لم يفته أن يشير الى ظاهرة تجاهل الأدريسى عند المؤلفين العرب ، وردد ما قاله بعض المستشرقين من أنهم فعلوا ذلك لاسرافه فى مدح رجار ، ولانصافه المسيحيين فى صقلية الى أبعد حد ، فى وقت كان المسيحيون فيه يشنون على المسلمين الحروب الصليبية الشعواء ، أو يعملون على طردهم من الأندلس . ولكن الدكتور زكى محمد حسن لا يقبل هذا التعليل ويرفضه قائلا انه لا يقوم على أساس متين ، (لأن شكوانا فى شأن ضياع سيرة الادريسى تصلح أيضا لسيرة كثير من سائر الجغرافيين المسلمين الذين لم يتصلوا بالمسيحيين ولم يسرفوا فى مدحهم) (٢) .

ومن المؤلفين العرب الذين نقلوا من الأدريسى أو أشاروا اليه ولو اشارات سريعة ، أو استعملوا مصنفاته فى تآليفهم ابن سعيد المغربى المتوفى سنة ٦٧٣ هـ ، وأبو الفداء المؤرخ الجغرافى المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، والأكفانى المصرى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ، وابن الوردى ، المتوفى سنة ٨٦١ هـ ، وابن دقماق المؤرخ المتوفى سنة ٨٠٩ هـ ، وليون (٣) الأفريقى المتوفى سنة ١٥٥٢ م ،

(١) تاريخ الادب الجغرافى العربى ج ١ ص ٢٩٢ .

(٢) الرحالة المسلمون : لزكى محمد حسن ص ٦٧ .

(٣) هو العربى الحسن بن محمد الوزان الذى اضطر لاعتناق المسيحية واسترعى نظر البابا ليون العاشر ، وسمى ليون الافريقى .

والحميرى صاحب « الروض المعطار » المتوفى سنة ٩٠٠ هـ ، وابن اياس المؤرخ المتوفى سنة ٩٣٠ هـ ، ومحمود بن مقديش الصفاقسي التونسى المتوفى سنة ١٢٣٣ هـ — سنة ١٨١٨ م .

١ وبعض هؤلاء المؤلفين قد تعرض بالنقد الخفيف أو الشديد للأدريسى ، فالطبيب المصرى الأكفانى يقول فى كتابه « ارشاد القاصد الى أسنى المقاصد » ما يأتى : (وكتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق فيه مخالفة لقسمة الأقاليم ، فان مؤلفه — يعنى الأدريسى — وان كان عارفا بالمسالك والممالك ، لجوبه الآفاق ، فانه عرى من علم هيئة الأفلاك) .

أما ابن عبد المنعم الحميرى صاحب « الروض المعطار » ، فقد نقد الادريسى نقدا شديدا ، كما نقد « معجم البلدان » لياقوت الحموى . ولكنه على الرغم من نقده للأدريسى فأنه ينقل عنه كثيرا ويأخذ منه . والحميرى لا يذكر فى نقله اسم الادريسى ولا اسم كتابه نزهة المشتاق ، ولكن المقابلة بين نصوص كتاب « الروض المعطار » وكتاب نزهة المشتاق تؤكد لنا تشابه العبارات مما يؤكد لنا عملية النقل الواضحة . وقد تتبعت كتاب « صفة جزيرة الأندلس » وهو المنتخبات من الروض المعطار للحميرى بتحقيق المستشرق بروفنسال فوجدت آثار الأخذ والنقل عن الأدريسى واضحة فى صفحات ٢ — ١٦ — ١٩ — ١٧٦ — ١٣٠ — ١٣١ — ١٣٢ .

ويؤكد لنا المستشرق فولرز (١) ان ابن دقماق نقل عن الادريسي كما نقل عن الكندى وابن حوقل والقضاعى ، وابن زولاق .

ويبدو أن المؤرخ ابن أياس — بما اشتهر عنه من النقل عمن سبقه — قد نقل كثيرا من نصوص الأدريسي . ويشير الى هذا المستشرق الايطالى آمارى ، ويستظهر أن ابن أياس ربما كان قد رجع الى مسودة من كتاب الادريسي غير معروفة لنا . أما المؤرخ ابن الوردى المتوفى سنة ٨٦١ هـ فقد أفاد من الأدريسي فى خلال كلامه على صقلية وفلسطين . وابن الوردى هذا هو الملقب بسراج الدين ، وهو غير قريبه وسابقه عمر بن الوردى الملقب بزين الدين والمعروف بالشعر والأدب ، وصاحب اللامية المشهورة التى مطلعها:

اعتزل ذكر الأغانى والغزل　　وقل الفصل ، وجانب من هزل

وقد توفى ابن الوردى الشاعر هذا فى سنة ٧٤٩ هـ . ومن عجب أن تشابه اسمه مع اسم ابن الوردى صاحب « خريدة العجائب ، وفريدة الغرائب » قد أوقع كثيرا من المؤرخين العرب والأجانب فى الخلط بين الرجلين .

---

(١) هو K. Vollers المستشرق النمسوى المتوفى سنة ١٩٠٩ وقد اهتم بابن دقماق وكتابه .

ولعل من قبيل استكمال المصـــادر العربية التى تحدثت عن الأدريسي أو ترجمت له فى القديم أن لا يفوتنا هنا ذكر العمـــاد الأصفهانى صـــاحب الجريدة المعروفة باســـم (جريدة القصر ، وجريدة أهل العصر) ، والمتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، فقد ترجم للأدريسى ترجمة وجيزة وقال عنه : (محمد بن محمد يعرف بابن الثـــيرى القرطبى . معظم ما يذكره ابن بشرون فى المختار من الأندلسيين رواية عنه ، ويذكر أنه لقيه فى مدينة صقلية . وقد صنف لمتملكها رجار الأفرنجى فى مسالك الأرض وممالكها كتابا كبيرا اســـمه نزهة المشتاق) (١) . ولقب الثيرى هنا غريب . وقد جاء تحقيقه فى الفصل الذى كتبناه عن موجز سيرة الشريف .

وغير قليـــل عدد المؤلفين العرب القدماء الذين أغفلوا اســـم الأدريسي وتجاهلوا الأشارة اليه . وليس هنا مجال سرد أسمائهم. ولكن الطريف أن المستشرق الفرنسى دى سلان قد أورد أسماءهم فى معرض حديثه عن الترجمة الفرنسية التى صنعها « جوبير » الفرنسى لكتاب « نزهة المشتاق » . وقد أشار دى سلان الى أن هؤلاء المؤلفين قصدوا اغفال ذكر أى شيء عن الشريف الأدريسى، مع أن الدلائل والقرائن تشير الى امكان معرفتهم به !

---

(١) ومن الانصاف أيضا أن نقول ان حاجى خليفة صاحب كشف الظنون قد ذكر نزهة المشتاق فى كتابه وترجم لصاحبه الادريسى ترجمة وجيزة ، وان كان لم يذكر لنا تريخ وفاته كعادته مع المؤلفين .

اهتمامات الغربيين بالشريف الإدريسي

فى الوقت الذى أغفل فيه العرب عالما كبيرا من علمائهم فى الجغرافية وعمل الخرائط وأدب الرحلات ، نرى الأوربيين قد شغلوا بهذا الرجل شغلا عظيما ، فنشروا آثاره ، وترجموها الى لغاتهم ، وأعادوا نشر خرائطه ومصوراته الجغرافية بتحقيق جديد، ودرسوا جوانبه المتعددة ، ووازنوا بينه وبين من سبقه من الجغرافيين وخاصة بطليموس ، وتحدثوا عن القيمة العلمية لأقاليم أوربا كفنلندة والبلطيق وألمانيا والبلقان والأندلس ، وأوصافه لأقاليم آسيا وأفريقية . ومنهم من تجاوز الحديث عنه وعن جهوده فى علم الجغرافية الى مشاركته فى الصيدلة وعلم النبات ، كما فعل المستشرق الألمانى مايرهوف .

ونلاحظ من تتبعنا الشديد لما كتب عن الأدريسى ، وما كشف

من جوانبه أن المستشرقين الألمان كانوا أكثر الأوربيين عددا فى الاهتمام بهــذا الرجل . وهى ظاهرة تلفت النظر ، وتؤكد مدى اهتمام الألمان بهذه الناحيةمن الجغرافية عند العرب . وقد نشر المستشرق الألمانى زيبولد المتــوفى سنة ١٩٢١ بحثا ضــافيا عن الأدريسى فى مجلة الاستشراق المشهورة Z.D.M.G. ســنة ١٩٠٩ ، كما حرر الفصل الخاص به فى دائرة المعارف الاسلامية. ويبــدو من كتاباته أنه اطلع على كل ماكتب عن الأدريسى حتى عصره .

أما المستشرق الألمانى جيلد مايستر (١) المتوفى سنة ١٨٩٠ م فقد نشر جزءا من كتاب نزهة المشتاق، وهو الجزء الخاص بالشام وفلسطين . واتجه المستشرق الباحث كونراد ميلر المتوفى سنة ١٩٣٣ الى خريطة الأدريسى فحــاول أن يعرف مدى تأثيره على بعض مصورى الخرائط الأوربيين وخاصة مارينو سانودو ، التى نشرها فيسكونتى سنة ١٣٢٠ م . وقد أشار المستشرق الدوميلى الى الجهد الذى بذله كونراد ميلر فى امدادنا بطبعة كاملة لخرائط الأدريسى نشرت فى شتوتجارت ما بين عامى ١٩٢٦ ، ١٩٣١ ، كما أنه قدم لنا فوق ذلك نصــا طريفا للشرح يشــتمل على عرض

(١) هو Gildemeister المتوفى سنة ١٨٩٠ ، له اهتمامات كثيرة بمروج الذهب للمسعودى وأحسن التقاسيم للمقدسى ، ونزهة المشــتاق للشريف الادريسى .

فوتوغرافى لوثائق لاتزال موجودة ، كما يشتمل على بعض تغييرات تناسب القارىء الأوربى (١) . ويذكر جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية اسم «روزن ميلر» ويشير الى أنه طبع وصف الشام وفلسطين فى مدينة ليبسك سنة ١٨٢٨ . وقد حاولت أن أهتدى الى روزن ميلر هذا والى اسهامه فى نشر ما يخص الشام وفلسطين من نزهة المشتاق فلم أوفق ، ولم تدلنى المصادر الكثيرة الأوربية والعربية على هذه المشاركة ولا على اسم ،روزن ميلر . ويشير كراتشكوفسكى الى أن « هارتمان » (٢) قد وضع اللبنة الأولى للاقتصار على دراسات محددة خاصة بكل قطر من الأقطار التى تحدث عنها الأدريسى ، وذلك حين نشر بحثه الخاص بأفريقية عند الأدريسى . وهذا النوع من التخصص هو الذى اتجه اليه ناشرو نزهة المشتاق فيما بعد . حين أخذ كل منهم بلدا معينا من البلدان التى ذكرها الأدريسى ونشر دراسة عنه مرفقة غالبا بالنص العربى. ومن المفيد أن نذكر هنا أن هارتمان هذا هو : ج — م — هارتمان المتوفى سنة ١٨٢٧ م ومن رجال الاستشراق الألمانى فى القرن التاسع عشر ، وهو غير « ريتشارد هارتمان » الألمانى أيضا ولم يكن له صلة بالأدريسى ولا آثاره .

وقد أشار المؤرخ الألمانى « جوزيف آشباخ » الى مشاركة

---

(١) العلم عند العرب . ص ٣٩٤

(٢) J.M. Hartmann المستشرق الالمانى المتوفى سنة ١٨٢٧ .

هارتمان القديم فى نشر قطع من كتاب الأدريسي ، ولكنه لم ينقل لنا عن أى الأقطار كانت هذه القطع (١) . وقد اشترك المستشرق الألمانى (٢) « هنرباخ » المولود سنة ١٩١١ فى حركة التخصص فى الدراسات عن الأدريسي وأوصافه للأقطار الخاصة ، فنشر دراسة خاصة بوصف الأدريسى لألمانيا فى كتابه نزهة المشتاق . ويشير كراتشكوفسكى الى هذه الدراسة المفيدة ذات الهدف المتواضع. أما المستشرق ماكس مايرهوف (٣) المتوفى سنة ١٩٤٥ فقد اهتم بالأدريسى من حيث هو عالم بالصيدلة والنبات ، لا من حيث مكانته فى علم الجغرافيا ، فنشر دراسة رصينة عنوانها « الصيدلة والنباتات عند الأدريسى » نشرها بمجلة الرياضيات والطبيعيات التى تصدر فى ليبزج سنة ١٩٣٠ . وقد قرر مايرهوف أن كتاب الأدريسى فى الأدوية لا يخلو من بعض الأهمية ، ولو أنه لايمكن وضعه فى مرتبة واحدة مع المصنفات العربية الممتازة فى هذا الميدان . أما العالم الألمانى جونتر فقد اهتم بالأدريسى فصنع عنه بحثا يتناول مكانته فى الجغرافية العربية ، كما يتناول بالدراسة علماء الموارنة اللبنانيين الذين أخرجوا كتبه أو كان لهم فضل

---

(١) تاريخ الاندلس فى عصر المرابطين والموحدين : يوسف أشباخ ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٢) هو Hoenerbach الذى اشتغل بالتدريس فى جامعات المانيا جامعة كاليفورنيا . وكان له اهتمامات بالزجل الاندلسى .

(٣) هو M. Meyerhof المتوفى سنة ١٩٤٥ ، وكان طبيبا عالميا فى العيون ، وتعد كتاباته فى الطب العربى مرجعا هاما .

السبق فى ترجمتها الى غير العربية ، وقد أشار الى هذا البحث المستشرق الايطالى مييلى ، كما أشار اليه الأستاذ نجيب العقيقى فى كتابه الجليل « المستشرقون » .

واذا انتقلنا من الألمانيين الذين اهتموا بالأدريسى الى رجال الاستشراق الآسبانى فأننا نجد منهم حفنة كريمة ، منهم كوندة ، وسافدرا ، وبلاسكويث ، وبالنثيا . أما كوندة المتوفى سنة ١٨٢٠ فقد نشر جزءا من نزهة المشتاق ، وهو الجزء الخاص بوصف الأدريسى للأندلس . وقد نشر الأصل العربى مع ترجمته له الى الأسبانية سنة ١٧٩٩ ، وجمع الى النص تعليقات وملاحظات مفيدة . أما سافدرا المتوفى سنة ١٩١٢ فقد نشر من نزهة المشتاق الجزء الخاص بأسبانيا ، مع بعض التصحيحات والتعديلات لما فات دوزى ، ودى جويه أن يذكراه فى طبعتهما . وقد نشر سافدرا النص العربى مع ترجمة له بالأسبانية فى مدريد سنة ١٨٨١ . ولم يشر جرجى زيدان الى عمل سافدرا ، ولكن أشار اليه يوسف أليان سركيس فى معجمه ، والأستاذ نجيب العقيقى فى كتابه « المستشرقون » .

أما أنطونيو بلاسكويز (١) فقد ترجم الى الأسبانية القسم

---

(١) هو المستشرق الاسبانى A. Blazquez وله دراسات اسبانية مغربية ونجد اسمه فى بعض المؤلفات العربية المعاصرة هكذا : بلا تكث .

الخاص بالأندلس فى نزهة المشتاق ونشره بمدزيد سنة ١٩٠١ ، وقد أشار ألدو ميلى ، ونجيب العقيقى الى هذه الترجمة . وهناك مستشرق اسبانى هو آنخل جونثالث (١) بالنثيا المتوفى سنة ١٩٤٩ ، واذا كان هذا الرجل لم يفرد دراسة خاصة بالأدريسى ، ولم يسهم فى نشر جزء من كتابه نزهة المشتاق ، فأنه قد تناوله بترجمة جيدة وتاريخ لحياته فى كتابه المشهور « تاريخ الفكر الأندلسى » الذى ترجمه الدكتور حسين مؤنس ، ولاشك أن هذه السيرة هى مشاركة كريمة من بالنثيا فى تقدير الأدريسى.

ويصادفنا فى ميدان الاستشراق الروسى ثلاثة من الرجال اهتموا بالأدريسى من نواحى مختلفة ، ونظروا اليه من زوايا متباينة ، فنرى فيكتور بيليابيف (٢) المولود سنة ١٩٠٤ ، ينشر بحثا فى سنة ١٩٥٧ عن آثار الأدريسى الجغرافية ، كما نرى مدنيكوف (٣) المتوفى سنة ١٩١٨ يشترك فى نشر وترجمة القسم

---

(١) هو Angel G. Palencia أكبر رجال الاستشراق الاسبانيين المعاصرين . واهتماماته كثيرة بالادب الاسبانى العربى يرجع اليها فى كتاب (المستشرقون) جـ ٢ ص ٥٩٨ للاستاذ نجيب العقيقى .

(٢) هو Victor Beliayev المستشرق الروسى المعاصر ، وهو تلميذ كراتشكوفسكى واشتغل بالتعليم حينا ، وبادارة قسم المخطوطات العربية بجامعة لينينجراد ، ويعد اليوم شيخ المتخصصين فى المخطوطات العربية فى الاتحاد السوفييتى .

(٣) هو المستشرق N. Myadnikove وهو مهتم بفلسطين وبيت المقدس .

الخاص بفلسطين والشام من كتاب الأدريسى ، وقد جاء بحثه هذا فى خلال كتابه الجليل : « فلسطين منذ الفتح العربى حتى الحروب الصليبية » واستند فيه الى المصادر العربية ، ومنها بالطبع كتاب نزهة المشتاق . أما قمة المستشرقين الروس فى الاهتمام بالأدريسى فهو العلامة أغناطيوس كراتشكوفسكى (١) المتوفى سنة ١٩٥١ . وقد أخرج لنا أعظم كتاب عن الدراسات الجغرافية عند العرب ، وعنوانه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » فى مجلدين ضخمين . وقد تناول الأدريسى فى الجزء الأول من كتابه فى ست عشرة صفحة من القطع الكبير ، ووفى الكلام عنه بما لا موضع معه لزيادة ، فكان من أوفى ماكتب عن الأدريسى عند المستشرقين .

ولم يحجم رجال الاستشراق الفنلندى عن ميدان المشاركة فى الاهتمام بالادريسى وجغرافيته ، فنرى أ . م . تالجرين المتوفى سنة ١٩٤٥ ينشر بماونة زميله الفنلندى تالجرين توليو (٢) وصف فنلاندة وبلدان البلطيق الشرقية كما جاء عند الأدريسى فى نزهة المشتاق . وقد نشرا المتن العربى الخاص بهذا الأقليم وترجمته

---

(١) هو العالم المشهور I. Kratchkovski وهو مؤرخ حجة للادب والتاريخ والجغرافيا عند العرب ، وأجمع العلماء والمستشرقون فى الارض كلها على الاعجاب به والثناء عليه .

(٢) هو المستشرق الفنلندى Tallgren-Tulio وهو غير زميله وسميه A.M. Tallgren المتوفى سنة ١٩٤٥ على حين توفى تالجرين توليو سنة ١٩٤١ . وقد خسرهما الاستشراق الفنلندى المعاصر .

والخرائط المتعلقة به والدراسة الضرورية له في أكثر من ١٥٠ صفحة من مجلة الدراسات الشرقية سنة ١٩٣٠ . أما الزميل تالجرين توليو فقد استقل وحده بدراسة جيدة عن « الجديد من الأدريسى » — أو الأدريسى من جديد — متنا وترجمة ودراسة فى ٢٤٢ صفحة من مجلة الدراسات الشرقية سنة ١٩٣٦ ، أى بعد ستة أعوام من البحث الأول المشترك بينه وبين زميله أ . م . تالجرين . وقد توفى هذا الباحث سنة ١٩٤١ ، أى قبل زميله السابق بأربع سنوات .

ولم يتخلف الاستشراق الفرنسى عن الأسهام فى الاهتمام بالأدريسى ، وفى هذا الميدان نسجل اسم المستشرق جوبير المتوفى سنة ١٨٤٧ ، وقد كان من علماء الحملة الفرنسية على مصر ، وتعد مشاركته فى تقدير الأدريسى بترجمة كتابه نزهة المشتاق ترجمة كاملة لمتن الكتاب كله .وقد ظلت هذه الترجمة تحظى بتقدير العلماء الى أن كشف النقد لها أنها لا تفى بمطالب العلم ، وأنها غير أمينة على الأصل . وأول من نبه الأذهان الى أخطاء النقل والترجمة فيها المستشرقان دوزى ودى جويه . ومن يومها رسخ الاعتقاد عند عدد من العلماء بأنها ترجمة فرنسية ليس من المستطاع الاعتماد عليها فى أية دراسة جدية . ويؤكد زيبولد فى مادة الأدريسى بدائرة المعارف الاسلامية أنها ترجمة كثيرة الخطأ ، كما يقرر ذلك صاحب معجم المطبوعات العربية والمعربة ، والأمير شكيب

أرســلان ، والدكتور حسين فوزى ، والمســتشرق الايطالى ألدوميلى . وقد أورد الأمير شكيب بعض نمــاذج من عيوب الترجمة نتركها لمن يريد ســعة الاطلاع فى كتــاب « الحلل السندسية » . أما المستشرقان جبرييل فيران ، وزميله ديمومبين فقد سبق لهما أن أعلنا عن ترجمة فرنسية لنزهة المشتاق ، ولكن وفاة أولهما قد قدرت لهذا المشروع ألا يظهر .

وتبدو مشاركة الاستشراق الايطالى فى الاهتمام بالأدريسى فيما ظهر من أول طبعــة عربية لكتاب نزهة المشــتاق فى مطبعة ألمديتشى المشهورة بروما سنة ١٥٩٢ م . وهى تعد واحــدة من أقدم الطبعات الأوربية التى ظهرت لهذا الكتاب بالحروف العربية. وهــذه المشاركة الأولى من ايطاليا فى احيــاء أكبر أثر جغرافى للأدريسى قد أعقبتها مشاركات أخرى ، منها ما صنعه المستشرق الايطالى فورلانى (١) المولود سنة ١٨٨٥ من نشره لجزء من كتاب روجر للأدريسى ، وهو الكتاب المعروف « بنزهة المشتاق » . أما المستشرق (٢) سكيا باريلى المتوفى سنة ١٩١٩ فقد اشترك مع مواطنه آمارى فى نشر بعض الأجزاء من كتاب نزهة المشتاق متنا وترجمة وتعليقا ، وقد نشر ذلك العمل فى رومة منذ سنة ١٨٧٨ الى سنة ١٨٨٣ م . واشترك ديفور مع آمارى فى نشر خريطة لجزيرة

---

(١) هــو G. Furlani وهو عضو فى مجامع علمية كثيرة

(٢) هــو C. Schiaparelli تمليــذ أمارى وخليفته على كرسى العربيــة فى فلورنسا .

صقلية استـــنادا الى الأدريسى والى جغرافيى العرب ، ونشرت بباريس سنة ١٨٩٥ . ولابد أن نشير هنا الى أن القسم الذى نشره وترجمه آمارى وسكيا باريلى من كتاب الأدريسى هو القســم الخاص بايطاليا . وهو مثال من التخصص فى نشر نزهة المشتاق بلدا بلدا ، بدلا من نشره كاملا . وتبدو مشـــاركة المستشرق الايطالى « ألدوميلى » فى الاهتمام بالأدريسى فيما كتبه عنه فى كتابه الشهير « العلم عند العرب » ، وهو الكتاب الذى ترجمه المرحومان الدكتوران محمد يوسف موسى ، وعبد الحليم النجار، وقد أثار ميلى جوانب من البحث عن الأدريسى ومشاركته فى علم الجغرافيا عند العرب تذكرنا بما صنعه المستشرق الإسبانى بالنثيا فى هذا السبيل . ولم تقل هولندة وعلماء الاستشراق فيها اهتماما بالأدريسى وآثاره عن بقية علماء البلاد الأوربية الأخرى ، وتحضرنا فى هذا المجال جهود العالمين دوزى ، ودى جويه المتوفيين سنتى ١٨٨٣ م ، ١٩٠٩ على الولاء ، فقد نشرا بالاشتراك الجزء الخاص بأفريقية والأندلس من كتاب نزهة المشـــتاق للأدريسى معتمدين على مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، وقد جمع الكتـــاب بين النص العربى والترجمة الفرنسية مع التعاليق والشروح والفهارس وطبع فى ليدن سنة ١٨٦٦ .

ودخل مجال الاهتمام بالأدريسى مستشرقان نمسويان أحدهما توماشك المتوفى سنة ١٩٠١ . وقد درس القسم الخاص من كتاب

الأدريسى ببلاد البلقان ، وحلله تحليلا استنبط منه حالة التجارة وطرقها فى ذلك العصر . ويصف كراتشكوفسكى دراسة توماشك هذه لشبه جزيرة البلقان عند الأدريسى (١) بأنها تحليل ممتاز .

أما المستشرق النمساوى الآخر فهو موجيك (٢) Mzik وهو تشيكى الأصل ، ولا نعرف عن حياته أكثر من أنه عين بمجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٥٦ ، وقد نشر مكتبة المؤرخين والجغرافيين العرب من مخطوطات المكتبة الوطنية بفينا ، متنا وترجمة ، سنة ١٩٢٦ — سنة ١٩٣٠ ، وذكر صاحب كتاب « المستشرقون » طائفة لا بأس بها من آثاره . وله فى مجلة الآداب الشرقية بحث عن الأدريسى وبطليموس نشر سنة ١٩١٢ . وقد حاول أن يرد فى بحثه المسائل التى أخذها الأدريسى عن بطليموس . بل قال ان الأدريسى فى معلوماته عن وسط أفريقيا يعتمد اعتمادا كليا على بطليموس ، بحيث يصبح من العسير اعتباره مصدرا أصليا مستقلا فيما يختص بهذه المناطق .

وأسهم الاستشراق السويدى فى ميدان الاهتمام بالأدريسى

---

(١) تاريخ الادب الجغرافى العربى ص ٢٨٧ .

(١) هو : W. Tomaschek المستشرق الجغرافى النمسوى المتوفى سنة ١٩٠١ .

(٢) هو : H. Von. Mzik وقد نشر مكتبة المؤرخين والجغرافيين العرب

بمستشرق واحد لا غير هو براندل الذى نشر بحثا عنوانه «سورية وفلسطين من خلال وصف الأدريسى لهما » ، وقد أشار كراتشكوفسكى الى هذه المشاركة اشارة عابرة ، كما ذكرها الأستاذ نجيب العقيقى صاحب كتاب « المستشرقون » فى هامش الكتاب لا فى صلبه .

من المجدّدين في الإسلام

ان من يتصفح كتاب « المجددون فى الاسـلام » للمرحوم الشيخ عبد المتعال الصـعيدى لا يتوقع أن يرى اسـم الشريف الأدريسى بين أعلام الأمة الاسلامية الذين يترجم لهم المؤلف فى هذا الكتاب . فالكتاب يوحى بأن الأعلام المشتمل عليهم هم رجال الدين والفقه والشريعة والعلوم الاسـلامية الذين أدخلوا على الدين فى مختلف العصور تجديدات تتلاءم مع تطورات الزمان. وخلعوا عليه ثيـابا جديدة بدل الجمود على ثوب قديم لا يلائم العصر الجديد . ولكن القارىء لهذا الكتاب الطريف المفيد يرى فيه أسماء اسلامية بعيدة عن مجالات الدراسة الشرعية ، والمباحث الدينية ، والموضوعات الفقهية ، والاصلاحات التى ينادى بهـا رجال الدين فى كل زمن ليخلصوا الاسلام من الشـوائب التى علقت به ،أو دخلت عليه . نعم ! يحار القارىء حين يرى فى كتاب « المجددون فى الاسلام » أسـماء الخليفة الواثق بالله العباسى ،

والمهتدى العباسى ، والرازى الفيلسوف ، والفارابى المعلم الثانى والشيخ الرئيس ابن سينا ، وأبى العلاء المعرى ، وابن رشد الفيلسوف الأندلسى ، والشريف الأدريسى ، والسلطان سليمان القانونى ، والشاه عباس الصفوى ، ونادر شاه ملك ايران فى القرن الثانى عشر الهجرى ، ومحمد على مؤسس الأسرة العلوية فى مصر ، ومدحت باشا ، ومصطفى كمال أتاتورك ، وعبد العزيز آل سعود .

ولقائل أن يقول ، ولسائل أن يسأل ما شأن الشاه عباس الصفوى ، ومحمد على ، واتاتورك ، والخليفة الواثق العباسى ، والشريف الأدريسى وبقية رجال السياسة والعلم الطبيعى والادارة بالتجديد فى الاسلام .

ولو قرأنا مقدمة الأستاذ عبد المتعال الصعيدى لكتابه لوجدنا فيها الجواب عن هذا السؤال حاضرا . فأن هذا العالم المتحرر الواسع الأفق يرى أن الدين ليس العبادة فقط ، ولا شىء فيه من عمل الدنيا ، ولا شىء فيه مما ينهض بالمسلمين فى دنياهم من علم أو صناعة أو زراعة أو تجارة ، وما اليها مما يحفظ على المسلمين دنياهم ولا يجعلهم فى الدنيا أقل نجاحا من غيرهم ، حتى لا يطمع فيهم طامع ، ولا يستبيح حماهم عدو ، فيملك عليهم أمرهم ، ويضيع عليهم دينهم ودنياهم معا .

ويرى الأستاذ الصعيدى أنه لو فهم الدين هذا الفهم الدينى وحده لم يكن هناك فى الاسلام شىء من التجديد ، لأن العبادات لا تتغير ولا تتجدد بتجدد الأزمان ، فالصلاة هى الصلاة لا تغيير فيها ، وكذلك بقية العبادات لا تخضع لتغيير ولا تجديد . ويرى الأستاذ الصعيدى أن الاسلام دين جامع لصلاح الدنيا والآخرة، فلا يقتصر الأمر فيه على ما يصلح الآخرة وحدها ، بل يدخل فيه ما يصلح الدنيا أيضا . والاسلام ليس دين عبادة فقط ، ولا دين طقوس دينية وحدها ، وأنما هو نهضة دينية ومدنية معا ، أريد بها النهوض بالعرب الذين جاء النبى العربى منهم أولا ، لينهضوا بالبشرية كلها ثانيا .

وعلى هذا الأساس بنى المؤلف الواعى بحثه فى تاريخ المجددين فى الاسـلام ، وأقامه وفهمه على أنه تاريخ نهوض المسلمين فى أمور دنياهم ، قبل أن يكون تاريخ نهوضهم فى أمور أخراهم . وعلى هذا الأساس اختار الأستاذ الصعيدى المجددين فى الاسلام منذ القرن الأول الى وقتنا هذا .

ولم يكن الأستاذ الصعيدى ابن بجدة هذا الرأى الناضج فى التجديد الاسلامى ولا أول من كتب فيه من وجهة النظر هذه ، بل سبقه اليه المرحوم السيد محمد رشيد رضا حين كتب مقدمة كتابه الضخم فى « تاريخ الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده » ، فقال : أنما كان المجددون يبعثون بحسب الحاجة الى التجديد لما

أبلى الناس من لباس الدين ، وهدموا من بنيان العدل بين الناس، فكان الامام عمر بن عبد العزيز مجددا فى القرن الثانى لما أبلى قومه بنو امية وأخلقوا ، وما مزقوا بالشقاق وفرقوا . وكان الأمام أحمد بن حنبل مجددا فى القرن الثالث ، لما أخلق (١) بعض بنى العباس من لباس السنة ، ورشاد سلف الأمة ، باتباع ماتشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وتحكيم الآراء النظرية فى صفات الله وما ورد فى عالم الغيب ، بالقياس على ما يتعارض فى عالم الشهادة .. ثم أخذ السيد محمد رشيد رضا يعد طائفة من المجددين بالمفهوم الدينى ، الى أن خلص الى الحديث عن مجددين آخرين للجهاد الحربى بالدفاع عن الاسلام أو تجديد ملكه وفتح البلاد له ، وأقامة أركان العمران فيه . وهؤلاء المجددون بهذا المفهوم كثيرون فى الشرق والغرب والوسط ، ورجاله معروفون ، كبعض خلفاء العباسيين ، والأمويين . ومنهم من جمع بين أنواع من التجديد كالسلطان صلاح الدين الأيوبى مجلى الصليبيين عن البلاد المقدسة وغيرها ، ومزيل الدولة الفاطمية الباطنية مصر ، وكمحمد على المجدد فى الادارة والعمران بمصر ، والأمير عبد القادر الجزائرى بطل الجهاد فى الجزائر ضد المستعمر الفرنسى ، وكمصطفى رشيد وفؤاد باشا وغالى باشا من مجددى السياسة فى تركية .

---

(١) لما أخلق ، أى بسبب ما أبلاه بعض العباسيين من مراسم السنة .

ومن هنا دخل الشريف الأدريسى فى المجددين فى الاسلام على أن له فى علم الجغـرافية أصـالة وابتكارات جعلته من أعظم الجغرافيين العرب .

ويبدى الأستاذ عبد المتعال الصـعيدى عجبه من أن حاجى خليفة صاحب كتاب «كشف الظنون» لم يذكر شيئا من تجديدات الأدريسى فى علم الجغرافية مما شهد له به علماء أوربا (وممـا شهدوا له به أيضا من أنه كان أول من سمى باسم الماليز أحـد الشعوب الساكنة فى جزيرة جاوة . وقد ذكر ما بين هذه الجزيرة وجزيرة مدغشقر من العلاقات ووحدة الجنس ، فدل بهذا على أن مصوره الجغرافى وصل الى تبسيط عظيم فى المحيط الهندى لم يصل اليه الجغرافيون قبله ..) (١) .

ولهذا لا ندهش اذا وجدنا فى كتاب « المجددون فى الاسلام » ترجمة جليلة للشريف الأدريسى لم نصادف مثلها فى المصـنفات الحديثة التى كان ينتظر منها أن تتحدث عن هذا الجغرافى العربى الكبير بأسهاب وتقدير ..

---

(١) المجددون فى الاسلام : لعبد المتعال الصعيدى ص ٢٣١ .

الإدريسي في كفة الميزان

على الرغم من المكانة العلمية الكبيرة والتقدير العظيم الذى ظفر به الشريف الأدريسى بين علماء المشرق والمغرب فى القـديم والحديث ، فان هناك بعض النقدات التى وجهت اليه ، والمآخذ العلمية التى أخذت عليه . والحق أننا ماكنا ننتظر أن ينعقد الأجماع على تقدير الشريف الأدريسى ، دون أن يوجه اليه مأخذ أو نقد . فأننا لا يجوز أن نغفل العصر الذى عاش فيه الرجل ، والظروف التى ألمت به ، والحالة العلمية التى كانت سائدة فى أوربا فى ذلك الحين .

وحسب الشريف الأدريسى فضلا أن كفة حسناته فى ميدان العلوم الجغرافية رجحت كفة المآخذ عليه بكثير . وحسب العالم شرفا وتقديرا أن تعد معايبه ، وتحصى مآخذه ، فان تلك المآخذ دليل على أن الرجل لم يأل جهدا ، ولم يدخر وسعا فى سبيل العمل الذى نهض به .

والحق أن التقدير العظيم الذى ناله الشريف الأدريسى — وخاصة من الأوربيين — يجب أن يشفع بحق لبعض المآخذ التى أخذها عليه بعض ناقديه . كما أن تلك المآخذ — مهما يكن من أمرها — لا يجوز أن تبرقع وجه المحاسن التى قام بها الادريسى فى ميدان الجغرافية ، ولا أن تبخس قيمتها الحقيقية التى اعترف له بها المنصفون والعدول .

وكثيرة هى الآراء الحسنة التى أبداها جمهرة من الباحثين الأجانب فى تقدير العمل الجغرافى العظيم الذى قام به الشريف الأدريسى ، وأسهم به فى حقل الجغرافية العالمية اسهاما لا ينكره الا جحود أو جهول .

ويكفى أن نشير هنا الى بعض تلك التقديرات العادلة التى أملاها فهم سليم لقيمة العمل الذى قام به الشريف فى كتابه الخالد (نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق) وفى مصوراته وخرائطه التى أضافت جديدا الى العلم فى عصر الشريف . ومازلنا نذكر شهادة المستشرق الكبير « آمارى » الذى يقول عن كتاب نزهة المشتاق انه (أفضل رسالة فى الجغرافيا وصلتنا عن العصور الوسطى) . وقد ردد هذه الشهادة فى تقدير كبير المستشرق المشهور نللينو ، كما اعتمد عليها (رايت) فى تقديراته .

ومالنا نذهب بعيدا وهذا هو «البارون دى سلان» المستشرق

الأيرلندى الأصل الفرنسى الجنسية وتلميذ المستشرق المشهور « دى ساسى » ، والمتوفى سنة ١٨٧٨ م ، يقول عن كتاب « نزهة المشتاق » للشريف الأدريسى انه كتاب (لا يمكن أن يوازن به أى كتاب جغرافى سابق له . وهناك بعض أجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ الجغرافى فى الأمور المتعلقة بها ...) . ولشهادة البارون دى سلان قيمة كبيرة ، لأن هذا الرجل له اهتمامات بالجغرافية والبلدانيات والمسالك عند العرب ، بالأضافة الى اهتماماته الكثيرة فى الشعر والأدب والتاريخ . ويكفى أنه شارك فى نشر كتاب أبى الفداء ، كما نشر كتاب عبدالله القرطبى فى كشف المسالك والممالك ، ونشر نبذة من رحلة ابن جبير الكنانى الأندلسى . وقد قلب هذا الباحث الدءوب بين يديه كثيرا من المخطوطات والمصنفات العربية وعرف قيمتها ، ووازن بعضها ببعض فى الموضوع الواحد . ومن هنا كان لرأيه قيمته ، فهو ممن لا يبدون الآراء اعتباطا ، أو يصدرون الأحكام جزافا ، ولكنه يحكم عن معرفة وحسن تقدير ..

أما المستشرق الألمانى زيبولد — أو سيبولد كما وردت فى بعض المؤلفات العربية — فقد أشرنا الى اسهامه فى تحرير الفصل الخاص بالشريف الأدريسى فى «دائرة المعارف الأسلامية» . وللرجل رأى حسن فى الأدريسى وكتابه « نزهة المشتاق » ، حيث يقول : « ان الدراسات العربية فى حاجة ماسة الى نشر كتاب الأدريسى ،

الذى يعد أعظم مصنفات العصور الوسطى فى الجغرافيا ، مع ترجمته وشرحه وعمل خرائط هامة له يعتمد فى ذلك على المخطوطات المعروفة لنا الآن فى مكتبات باريس ، وأكسفورد وأستانبول ...)

ولن نعدم تقديرا جميلا للشريف الأدريسى وكتابه « نزهة المشتاق » عند المستشرق الهولندى كرامرس الذى خلف « فنسنك » على كرسى الأدب العربى فى جامعة ليدن بهولندة ، والذى توفى سنة ١٩٥١ م ، فقد رأى هذا الباحث بحق (أنه ليس هناك مؤلف حفظ لنا معطيات وافرة ذات قيمة كبرى عن بلاد الغرب — أى أوربة والأندلس والمغرب — كما فعل الأدريسى . وقد مر وقت كان هو فيه الممثل الوحيد للأدب الجغرافى العربى).

ولو أخذنا نتتبع آراء العلماء والباحثين ورجال الاستشراق فى الشريف الأدريسى وقيمته وقيمة كتابه (نزهة المشتاق) لطال أمامنا أمد القول واتسع ، ولكننا نكتفى بما سقناه قبل هذا ، كما نحيل على فصل لاحق من كتابنا هذا عنوانه (الأدريسى فى تقدير الغربيين والعرب) يخرج منه القارىء الكريم بحفنة من التقديرات والآراء الصريحة فى القيمة الجغرافية الكبرى للشريف الأدريسى وآثاره فى علم الجغرافيا .

ولن يصرفنا هذا التقدير الكريم لهذا العالم العربى عن أن نعرض بعض ما قيل فيه من آراء تمس قيمة عمله العظيم . وقد

يكون ناقدوه على حق فيما قالوه ، ولكنه على كل حال نقد لا ينقص من قدر الشريف قيد أنملة ، ولا يؤثر في القيمة العلمية له ولمشاركاته فى الجغرافية .

واذا كنا نسجل فى هذا الفصل ـــ ونحن نقوم الرجل فى كفة الميزان ـــ بعض ما وجه اليه من نقد ، فليس ذلك منا تشهيرا بالرجل ، ولا اذاعة لما أخذ عليه ، ولكن ليقف القارىء على ما قيل فى الشريف الأدريسى سواء أكان له أم عليه ، فان نشر المحاسن وحدها قد يؤول على أنه تواطؤ على اخفاء المساوىء ، وهى صفة لا تليق بالعلم والبحث . ومادام النقد بعيدا عن الهوى والتعصب والجنف فى الحكم فان الحقيقة تكسب من ورائه خيرا كثيرا .

ولم يسلم الشريف الأدريسي حتى من نقد بعض علماء الأسلام القدامى والمحدثين . فهذا هو الطبيب المصرى محمد بن ابراهيم ابن ساعد الأنصارى المعروف بابن الأكفانى ، وصاحب كتاب « ارشاد القاصد ، الى أسنى المقاصد » و « نخب الذخائر ، فى أحوال الجواهر » وصاحب كتاب «روض الألبا ، فى أخبار الأطبا» الذى اختصر به كتاب « عيون الأنباء » لابن أبى أصيبعة ، والمتوفى سنة ٧٤٩ هـ ـــ كما فى « الدرر الكامنة » ، «والبدر الطالع» ، و « الأعلام » لخير الدين الزركلى ـــ يقول فى كتابه « ارشاد القاصد » وفى القسم الخاص بالحديث عن الجغرافية : (وكتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، فيه مخالفة لقسمة الأقاليم ، فان

مؤلفه — يعنى الشريف الأدريسى — وان كان عارفا بالمسالك والممالك لجوبه الآفاق ، فانه عرى من علم هيئة الأفلاك) . وقد نقل المستشرق أغناطيوس كراتشكوفسكى فى هذا الصدد ماترتب على هذا النقد من قول بعض الباحثين الأوربيين : (من هذا يتضح لنا ان محاولة الأدريسى للتقريب بين الجغرافيا الوصفية والفلكية قد عرفت فى الشرق بوصفها محاولة فاشلة تماما كما عرفها العلم الحديث ...)

ومالقى الشريف الأدريسى نقدا أشد ولا تقديرا أبخس ، من شخص شرقى مسلم مثلما لقى من الأمير (يوسف كمال) الذى كان له بعض المعاناة فى الخرائط والمصورات العربية كما كان له بعض الاهتمام بها . فقد نفى نفيا باتا وجود أى تأثير مزعوم لنص البكرى ولخارطات الشريف الأدريسى على أوربا فى العصر الوسيط بل ذهب فى النفى خطوات أبعد من هذا فاعتبر اى زعم من هذا القبيل ضربا من الهذيان العلمى. وقد أخذ كراتشكوفسكى هذه الفكرة الظالمة فزاد فيها ، زاعما أنه اذا كان هنا تأثير على أوربا فأنه دون ريب لم يكن للشريف الأدريسى نفسه ، بل للوسط الصقلى الذى أمضى فيه الأدريسى زهرة عمره . ويحق لنا أن نرد عن الشريف بعض ما تجنى به عليه ، فما قيمة هذا الوسط الصقلى لو لم تظهر فيه آثار الشريف الأدريسى وجهوده العلمية واضحة للعيان ؟

واذا كان الأمير يوسف كمال قد ظلم الأدريسى بأن نفى عنه كل تأثير على أوربا فى تقدم الجغرافية فى العصر الوسيط ، فأن هناك مستشرقا فرنسيا من رجال القرن التاسع عشر قد ظلم الأدريسى ظلما كبيرا بأن حكم عليه حكما قاسيا حين قال : (والأدريسى — فى بعض النقاط — قد ساعد بالأحرى على تقهقر العلم بدلا من تقدمه ..) وهو حكم جائر من عالم مستشرق مثل « ج.ت. رينو » الذى تتلمذ على « دى ساسى » واقتفى أثره ، وتوفى سنة ١٨٦٧ م . ولا ندرى كيف يقال ان الأدريسى ساعد على تقهقر العلم بدلا من تقدمه ، مع هذه الشهادات العالية التى أدلى بها كثير من المستشرقين ؟ وعلى الرغم مما فى كلام « رينو » من جور على قيمة الشريف الأدريسى ، فأن الرجل نفسه قد عاد ليلطف من حدة حملته قائلا : (غير أن مصنفه — ويعنى به كتاب نزهة المشتاق — يمثل صرحا هائلا فى ميدان الجغرافيا ..) . ويخيل ألينا أنه ليس هناك تناقض بين أول كلام « رينو » وآخره ، فأن هناك بعض المآخذ على كتاب الشريف الأدريسى وطريقته فى تحديد المسافات والأبعاد ، ولكنها مآخذ لا تؤثر قليلا ولا كثيرا فى قيمة ذلك الصرح الهائل الذى شبه به (رينو) كتاب نزهة المشتاق .

وقد حاول المستشرق النمسوى « توماشك » أن يزن

الشريف الأدريسى بميزان صحيح ، وأن لا يجور عليه فى الحكم أو يبخسه بعض حقه . فهو حين يقرر أنه من غير المستطاع الاعتماد على الشريف الأدريسى فيما يتعلق بتحديد المسافات والأبعاد بوجه خاص ، وحين يقرر أن معطيات الشريف الأدريسى عن الجغرافية الطبيعية للبلقان طفيفة ، فأنه فى الوقت نفسه يؤكد أن فكرة الأدريسى التى كونها فى كتابه عن أهم المراكز والطرق التجارية برومانيا ، وذلك باستماعه الى روايات التجار من العرب واليهود والأغريق والفرنجة ، تمثل محاولة مبكرة لم يستطع أن يقوم بها أحد فى بيزنطة فى ذلك العهد ، بالرغم من مجاورة بلادهم لتلك الأصقاع . ويؤكد « توماشك » أنها محاولة من الشريف الأدريسى لن تفقد قيمتها على مر الزمن . ولم ينكر توماشك أن الشريف الأدريسى أعطانا معلومات جغرافية ضئيلة عن طبيعة بلاد البلقان ، ولكنه قدم لنا معلومات غزيرة فى مجال التاريخ .

وكذلك فعل المستشرق « بارتولد » عضو مجمع العلوم الروسى والرئيس الدائم للجنة المستشرقين فيه والمتوفى سنة ١٩٣٠ ، فقد رأى فى كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » محاولة للتنظيم والترتيب ، ولكن على حساب الدقة والتثبت ..

وقد يختلف التقدير للشريف الأدريسى فى موضوع معين عند اثنين من الباحثين . فقد ذكر المستشرق النمسوى موجيك

(أن الأدريسي أنمــــا يعتمد اعتمادا كليــا على بطليموس فى معلوماته عن داخل أفريقية ، بحيث يضحى من العســـير اعتباره مصدرا مســـــتقلا فيما يختص بتلك المناطق) ، على حين أن الباحث الجغـــرافى المعاصر « كمبــــــل » يقول فى كتابه (علم الجغرافية فى العصر الوسيط) المطبوع بلندن سنة ١٩٣٨ : (ان الأدريسي فى وصفه لأفريقية لم يترسم خطى بطليموس دون وعى، فوصـــفه لمجرى النيـــل الغربى ــ أى نهر النيجر قـــد وكـــدت صحته الاكتشافات الجغرافية فى القرن التاسع عشر . وهو على معرفة جيدة بالتجارة مع داخل أفريقية ، وقد أورد أسماء المراكز التى ازدهرت فيها الحضارة الاسلامية فى ذلك الوقت ، مثـــل غانة ، وسلا ، وتكرور) .

وقد التمس المستشرق الأسبانى « بالنثيا » الأعذار للشريف الأدريسي فيما وقع فى كتابه « نزهة المشـــــتاق » من أخطاء ، فالتمس منا أنه لا ينبغى أن يغيب عن بالنا أن الشريف الأدريسي كتب كتابه هذا فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى، وأن موت الملك روجار الصقلى وما أعقبه من القلاقل فى دولة النورمان بصقلية حالت بين الأدريسي وبين أن يدخل على كتابه التعديلات الأخيرة الواجبة ، وأكد « بالنثيا » أن الكتاب حافل بالمعلومات الصحيحة فى الغالب ، ومادته وافرة عن البلاد الأوربية التى تسكنها شعوب نصرانية .

ومع ذلك فقد عاب « بالنثيا » على كتاب (نزهة المشتاق) للشريف الأدريسى أنه يضم بعض أطراف من الخرافات التى كانت أوسع ما تكون انتشارا فى عصره . وقد تناولنا الحديث عن هذه القضية فى الفصل الذى عنوانه « بين الواقع والأساطير » .

الإدريسي في تقدير الغربيين والعرب

قد يكون من المناسب هنا أن نسجل بعض الآراء التى أبداها لفيف من المستشرقين والباحثين والعلماء العرب والأجانب فى معرض تقدير الأدريسى وتقدير آثاره فى تقدم العلوم الجغرافية ومدى اسهامه فى ذلك السبيل .

* يقول العلامة كارا دى فو صاحب كتاب « مفكرو الاسلام » وغيره من الكتب العظيمة التى يعرفها المشتغلون بالفلسفة الاسلامية : (ان الأدريسى استعمل ملاحظاته الشخصية ، زيادة على الانتفاع بملاحظات معاصريه وأعمال المؤلفين قبله . ولاشك أن ماكتبه ووصف به البلاد الغربية كان أحسن ما كتب عنها ، لأنه أعطانا فى هذا الصدد أبحاثا من الطبقة الأولى) .

❊ وقال البارون دى سـلان المستشرق الفرنسى من بحث نشره فى عدد أبريل سنة ١٨٤١ من المجلة الآسيوية الفرنسية : (ان كتاب الأدريسى لا يمكن أن يوازن به أى كتـاب جغرافى سابق له ، وان ثمة بعض أجزاء من المعمورة لايزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافى فى الأمور المتصلة بها) .

❊ وقال جوستاف لوبون المفكر الفرنسى المشهور ، وصاحب « حضارات الهند » ، و « حضارة العرب » وغيرهما من الكتب العظيمة : (وأشهر جغرافيى العرب هو الأدريسى . ومن كتب الأدريسى التى ترجمت الى اللاتينية ، تعلمت أوربة علم الجغرافية فى القرون الوسطى) .

❊ وقال العلامة سـيديو صاحب كتاب « تاريخ العرب العام » : (ويعد الأدريسى أول نقطـة اتصـال بين الجغـرافية اللاتينية ، وجغرافية المدارس الاسلامية ..) .

❊ وقال جوتيه البحاثة الفرنسى : (ان الشريف الأدريسى الجغرافى كان أسـتاذ الجغرافيا الذى علم أوربا هـذا العلم لا بطليموس ، ودام معلما لها مدة ثلاثة قرون . ولم يكن لأوربا مصور للعالم الا مارسمه الأدريسى ، وهو خلاصة علوم العـرب فى هذ االفن . ولم يقع الأدريسى فى الأغلاط التى وقع فيهـا بطليموس فى هذا الباب) .

❊ وقال المستشرق الايطالى الدو ميلى : (.. وهذا العالم الجغرافى الذى ربما كان أعظم جغرافيى العالم الاسلامى ، كان على وجه الخصوص ذا ملكة ممتازة فى رسم الخرائط) .

❊ وقال العالم الباحث جون رايت : (ولاشك أن كتاب الأدريسى أتى ببعض العناصر لتنمية فن الملاحة فى صقلية ، ومنها — بواسطة الملاحة فى جنوة — الى قطلونية والبرتغال) .

❊ وقال كامبل : (ان أحدى السمات العظيمة فى كتاب الأدريسى هى أننا لانرى المؤلف موافقا لآراء بطليموس على طول الخط دون تحفظ ، وانما كان يستهدى الأدريسى بمعارفه الشخصية ، وتجاربه المتنوعة كرحالة كثير الأسفار) .

❊ ويقول فيه المستشرق الأسبانى بالنثيا : (ان الكتاب حافل بالمعلومات الصحيحة فى الغالب ، ومادته وافرة عن البلاد الأوربية التى تسكنها شعوب نصرانية) .

❊ وقال فيه العالم رينو وقد جمع فيه بين اظهار المحاسن والمساوىء : (والأدريسى فى بعض النقاط قد ساعد بالأحرى على تقهقر العلم بدلا من تقدمه ، غير أن مصنفه على وجه العموم يمثل صرحا هائلا فى ميدان الجغرافيا يشبه فى هذا الصدد مؤلف استرابون) .

❊ ويقول فيه كراتشكوفسكى المستشرق الروسى :

(.. ورغما عن كل هـــذه التحفظات فأن مؤلفات الأدريسى فى الجغرافيـــا تمثل بكل تأكيد ظاهرة ممتـــــازة فى محيط الأدب الجغرافى العربى خاصة ، وفى النشاط العلمى لجميع العصــــور الوسطى عامة ..) .

وفوق هـــــذا كان الأدريسى موضـــع اهتمام ودراسة من المسلمين غير العرب ، فاهتم به حافظ أبرو الأيرانى ، كما اهتم الأتراك به وبأعادة نشر كتابه متنا وترجمة وتعليقا ، كما اهتم حاجى خليفة صاحب كشف الظنون وذكر كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وعرف بالأدريسى تعريفا وجيزا ، وأشار الى اختصار بعضهم لهذا الكتاب . أما حيدر بامات صـــاحب كتاب « مجالى الاسلام » ، والذى عرف فى التأليف الفرنسى باســـم « جورج ريفوار » وهو مسلم صحيح الاسلام ، فقد أشار الى الأدريسى وعرف به في ايجاز ، وأوجز الحكم عليه قائلا : (وكان ــــ الأدريسى ــــ أول من جعـــل ارتباطا بين جغرافية اللاتين ، وجغرافية المدارس الاسلامية) ، وهو هنـــا ناقل لرأى العلامة سيديو الذى سبق ذكره . ويرى الباحث الهندى نفيس أحمد أن كتاب الأدريسى ــــ بالتأكيد ــــ هو أكبر نموذج بارز لانصهار المعلومات الجغرافية القديمة مع المعلومات المتجددة .

هــــذه هى نماذج من آراء بعض الأوربيين والمسلمين غير العرب فى الأدريسي وكتابه وجهــوده فى علم الجغرافيــا . أما العرب القدامى والمحدثون فلا داعى لذكر أسمائهم وآرائهم هنا فى هذا الفصل ، لأنها مدونة على مدى كتابنا كله فى أكثر من موضع ، وهى تؤكد تيقظ العرب اليوم لأنصاف هــــذا العالم الجغرافى العظيم .

المراجع والمصادر

مرتبة وفق حروف الهجاء

١ ـ **أثر العرب فى الحضارة الأوربية :**
عباس محمود العقاد ، دار المعارف . مصر ١٩٤٦ .

٢ ـ **أثر العرب والاسلام فى النهضة الأوربية :**
جماعة من الأساتذة المختصين ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ؛ القاهرة ١٩٧٠ .

٣ ـ **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى :**
أبو العباس الناصرى السلاوى ، الدار البيضاء المغرب ١٩٥٦ .

٤ ـ **الاسلام والحضارة العربية :**
محمد كرد على ، القاهرة ١٩٣٤ .

٥ ـ **الأعلام :**
خير الدين الزركلى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ .

٦ ـ **أعلام من الاسكندرية :**
نقولا يوسف ، الاسكندرية ١٩٦٩ .

٧ ـ **البداية والنهاية :**
ابن كثير الدمشقى ، مطبعة السعادة القاهرة ١٣٩٢ .

٨ ـ **البيان المغرب ، فى حلى المغرب :**
ابن عذارى المراكشى ، مكتبة صادر ، بيروت ١٩٥٠ .

٩ ـ **تاريخ الأدب الجغرافى العربى :**
أغناطيوس كراتشوفسكى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٣ .

١٠ ـ **تاريخ آداب اللغة العربية :**
جرجى زيدان ، الطبعة الأخير ، القاهرة سنة ١٩٥٩ .

١١ ـ **تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين :**
يوسف أشباخ ، ترجمه محمد عبد الله عنان القاهرة سنة ١٩٤٠ .

١٢ ـ **تاريخ الحضارة الاسلامية :**
بارتولد ، ترجمة حمزة طاهر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٢

١٣ ـ **تاريخ العرب العام :**
سيديو ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٤٨ .

١٤ ـ **تاريخ العرب ، مطول :**
الدكتور فيليب متى ، بيروت ١٩٤٩ .

١٥ ـ **تاريخ الفكر الأندلسى :**
بالنثيا ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ .

١٦ ـ **تقدم العرب فى العلوم والصناعات :**
عبد الله الجرارى ، القاهرة ١٩٦١ .

١٧ ـ **جهود المسلمين فى الجغرافيا :**
نفيس أحمد ، ترجمة فتحى عثمان ، القاهرة .

١٨ ـ **حديث السندباد القديم :**
الدكتور حسين فوزى ، القاهرة ١٩٤٣ .

١٩ ـ **حسن المحاضرة :**
السيوطى ، تحقيق محمد أبو الفضـل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٧ ٠

٢٠ ـ **حضارة العرب :**
غوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة سنة ١٩٤٨ ط ثانية ٠

٢١ ـ **الحضارة العربية :**
جاك ريسلر ، الدار المصرية للتأليف والنشر سنة ١٩٦٦ ٠

٢٢ ـ **الحلل السندسية :**
الأمير شكيب أرسلان ، القاهرة ١٩٣٦ ٠

٢٣ ـ **خطط المقريزى :**
مطبعة النيل ، القاهرة ١٣٢٤ هـ ٠

٢٤ ـ **دائرة المعارف الاسلامية :**
الترجمة العربية ، القاهرة ١٩٣٣ ٠

٢٥ ـ **الرحاله المسلمون فى العصور الوسطى :**
الدكتور زكى محمد حسن ، القاهرة ١٩٤٥ ٠

٢٦ ـ **الرحلات :**
الدكتور شوقى ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٦ ٠

٢٧ ـ **رحلة ابن جبير :**
تحقيق الدكتور حسين نصار ، دار مصر للطباعة ، القاهرة٠

٢٨ ـ **الرواد :**
فؤاد صروف ، دار المقتطف ، القاهرة بدون تاريخ ٠

٢٩ ـ **رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى :**
الدكتور نقولا زيادة ، القاهرة ١٩٤٣ .
٣٠ ـ **الروض المعطار :**
الحميرى ، منتخبات اختارها بروفنسال . القاهرة سنة١٩٣٧
٣١ ـ **ظهر الاسلام :**
الدكتور أحمد أمين حـ ٣ ، القاهرة .
٣٢ ـ **العرب فى صقلية :**
الدكتور احسان عباس ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٩ .
٣٣ ـ **العرب والملاحة فى المحيط الهندى :**
ج فضلو حوراني ، مكتبة الانجلو المصرية سنة ١٩٥٨ .
٣٤ ـ **العلم عند العرب :**
الدو مييلى ، دار القلم ، القاهرة سنة ١٩٦٢ .
٣٥ ـ **العلوم عند العرب :**
قدرى حافظ طوقان ، مكتبة مصر بالفجامة ، القاهرة سنة ١٩٥٦ .
٣٦ ـ **عيون الأنباء ، فى طبقات الأطباء :**
ابن أبى أصيبعة ، المطبعه الوهبية ، القاهرة سنة ١٨٨٢ .
٣٧ ـ **فهرس المخطوطات المصورة جـ ٤ :**
فؤاد سيد ، معهد المخطوطا ، القاهرة ١٩٦٤ .
٣٨ ـ **الكامل :**
ابن الأثير ، المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٣٥٧ هـ .
٣٩ ـ **كشف الظنون :**
حاجى خليفة ، مطبعة العالم ، استنبول سنة ١٣١١ هـ .

٤٠ ــ **كنوز الأجداد :**
محمد كرد على • مطبعة الترقى ، دمشق سنة ١٩٥٠ •

٤١ ــ **مآثر العرب على الحضارة الأوربية :**
جلال مظهر ، القاهرة ١٩٦٠ •

٤٢ ــ **مجالى الاسلام :**
حيدر بامات ، ترجمه عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٦ •

٤٣ ــ **مجانى الأدب :**
الأب لويس شيخو اليسوعى ، بيروت •

٤٤ ــ **المجددون فى الاسلام :**
عبد المتعال الصعيدى ، القاهرة ، مكتبة الآداب ، بدون تاريخ •

٤٥ ــ **المستشرقون :**
نجيب العقيقى ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٤ •

٤٦ ــ **معجم المطبوعات العربية والمعربة :**
يوسف أليان سركيس ، القاهرة سنة ١٩٢٨ •

٤٧ ــ **معجم المؤلفين :**
عمر رضا كحالة ، مطبعة الترقى ، دمشق ١٩٦١ •

٤٨ ــ **مقدمة ابن خلدون :**
تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ، القاهرة ١٩٥٧ •

٤٩ ــ **الموسوعة العربية الميسرة :**
الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٥ •

٥٠ ــ **النبوغ المغربى ، فى الأدب العربى :**
عبد الله كنون ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت •

٥١ ـ نفح الطيب :
المقرى ، المطبعة الآزهرية المصريه ، القاهرة ١٣٠٢ هـ ٠

٥٢ ـ الوافى بالوفيات :
صلاح الدين الصفدى ج أ ، اشراف ديدرنغ ، استنبول ٠

٥٣ ـ وصف الهند ومابجاورها من البلاد :
الادريسى ، تحقيق الدكتور مقبول احمد ، الهند ١٩٥٤ ٠

المجلات

مجلة معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية ـ

مجلة المجمع العلمى العراقى

مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد

مجلة عالم الفكر الكويتية عدد مارس سنة ١٩٧١

فهرس

الموضوع	الصفحة
المعاينة والمشاهدة	١١٧
منهج الأدريسى فى وصف البلاد	١٢٥
بين الواقع والأساطير	١٣٧
وصاف المدن	١٤٥
وصاف البحار	١٥٣
الأدريسى ورحلة المغررين	١٦١
أوربا والأندلس وأفريقية عند الأدريسى	١٧١
جوانب متعددة من الأدريسى	١٨١
ألأدريسى بين التجاهل والأنصاف	١٨٩
اهتمامات الغربيين بالشريف الأدريسى	١٩٩
من المجددين فى الاسلام	٢١١
الأدريسى فى كفة الميزان	٢١٧
الأدريسى فى تقدير الغربيين والعرب	٢٢٧

رقم الايداع بدار الكتب ٥٢٦٩/١٩٧١